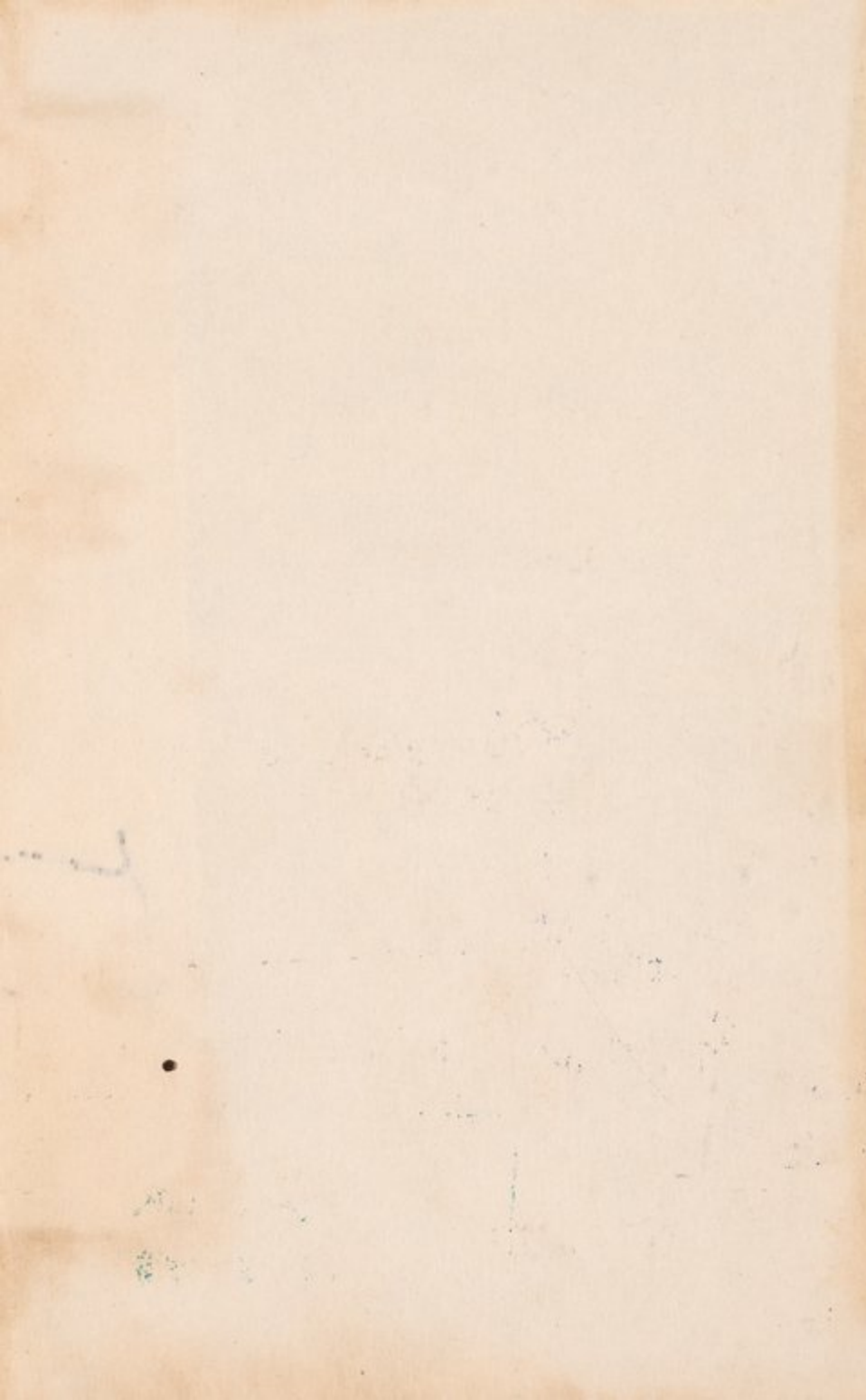


فروخ

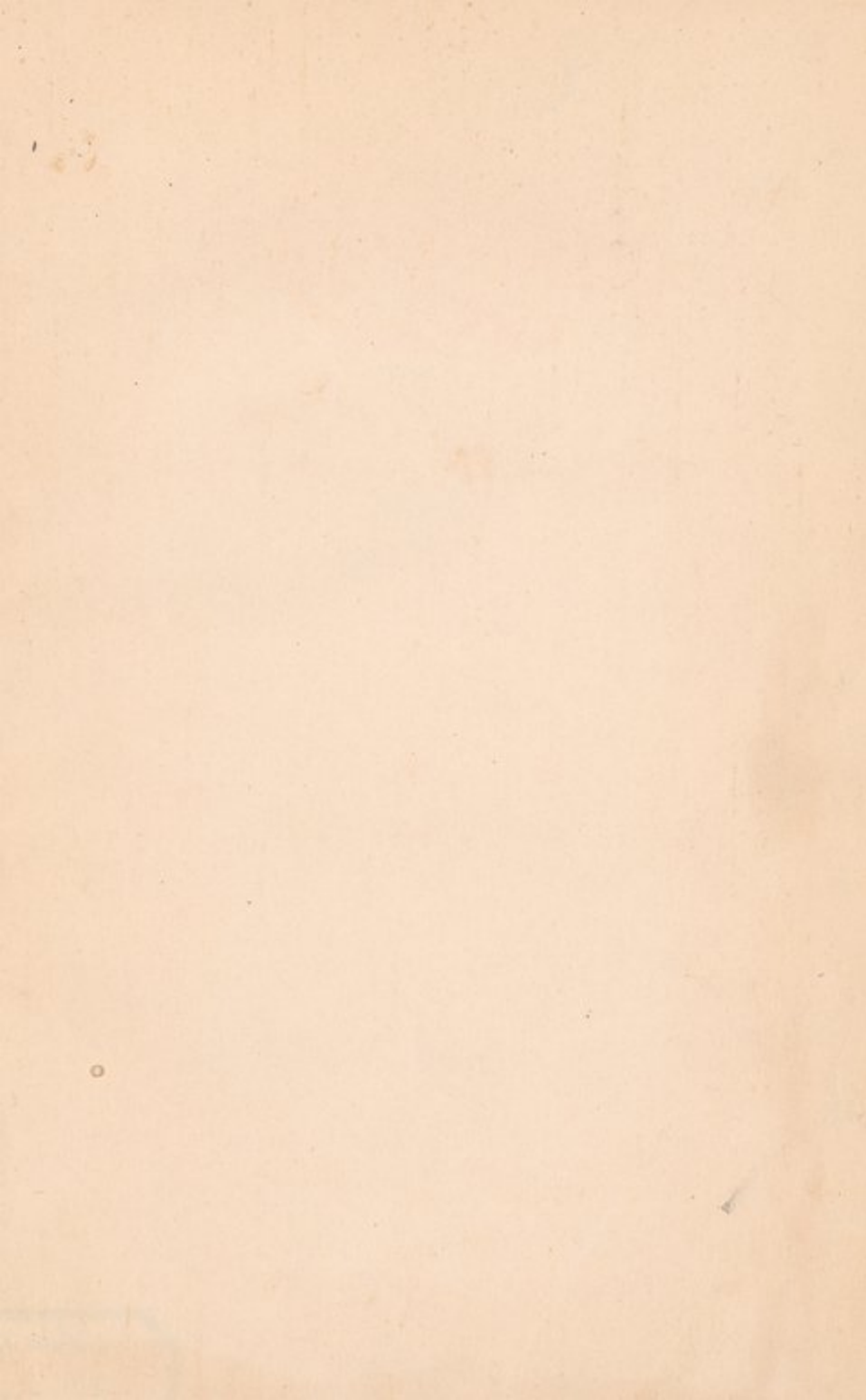
ایو تمام



3

1. 1. 1.

1. 1. 1.



۱۹۲۷

892.71
F2424

۱۶



892.71
A1584

شاعر الخليفة محمد المعتبر بالله

تأليف
عبدفروغ

جميع الحقوق محفوظة المؤلف

48806

م ۱۳۵۳ / ۵ / ۱۹۳۵

الطبعة الاولى

مطبعة الكشاف بيروت

الفهرست

- الكلمة الاولى . ص ٣
صورة ابي تمام . ص ٥
مصادر الدراسة . ص ٧

الفصل الاول - ترجمة ابي تمام: جاسم ، دمشق ، حمص ، مصر ، سورية
العراق ، خراسان ، الموصل . ص ١٢ - ٢٠

الفصل الثاني - بيئة ابي تمام وخصائصه . ص ٢١ - ٦٩

بيئته الخاصة ص ٢١ ، العناصر المساعدة ص ٢٨
خصائص ابي تمام المعنوية ص ٣٦ ، الصناعة في شعر
ابي تمام ص ٥١ ، المتعصبون لابي تمام والمتعصبون عليه
ص ٦٠

الفصل الثالث - نقد فنون ابي تمام واجاثته . ص ٧٠ - ١٠٠

المديح ص ٧٠ ، الفخر ص ٧٩ ، الرثاء ص ٨١ ،
العتاب ص ٨٧ ، الوعيد والهجاء ص ٨٨ ، الوصف ص ٩٠
الغزل والنسيب ص ٩٣ ، الحكمة ص ٩٦ ، الزهد
ص ٩٨ .

ص ١٠٠

الاطباء المطبعية



الكلمة الاولى

ابو تمام حبيب بن اوس الطائي ، كما يعرفه النقاد ، شاعر يمثل عصرأ
بجميع نواحيه ، ويبلغ بقصائده اقصى مصادر المعاني وابعد حدود المجاز واغرب
وجوه الاستعارة ، باوغاءً مبنيا - في الاعم الاغلب - على غريب العربية
ونوادر النحو ، ومعقوداً بالاشارات التاريخية ومحبو كاً بالحكم : قريبها
وبعيدها . هذه هي ميزات ابي تمام الخاصة ، اما ما سوى ذلك فاشياء يشرك
فيها جميع الشعراء ولكنه يعاوبها فوقهم .

وليس المسلك الى ديوان ابي تمام سهلاً ، ولا النظر فيه هيناً فانك تحتاج
في تفهمه الى دورة عقلية خاصة لا تستقر على معنى قبل ان تستعرض جميع
ما تستوعبه من اللغة والاجتماع والفلسفة والادب ثم لا يفني ذلك بما تريد
فترجع ادراجك في الاستنباط والتخريج ؛ فاذا فعلت ذلك كنت امام شعر
حبيب بن اوس كما قال ابن الرومي في وحيد المغنية :

فهي العيش ما يزال متى استعرض يلى غرائبها ويزيد

لقد قسمت هذه الصفحات التالية اقساماً ثلاثة تتبعت في اولها خطوات

صاحب الترجمة عهداً عهداً وعقدت من حوادث حياته فصلاً متعانقاً قدر
الاستطاعة وجهد الطاقة . واما الفصل الثاني فرميت منه الى غرضين اولهما
ان اجمع اكثر ما يجب ان يعرفه الدارس لديوان ابي تمام فيستغني عن مراجعة
المصادر ليوفر وقته على التفهم ؛ وثاني الغرضين ان ارتب هذه المواد المجموعة
ترتيباً معقولاً متسقاً . واما الفصل الثالث فدراسة فنون الشاعر دراسة مبنية
على الديوان في ضوء ما قاله النقدة من اساطين العلم والادب ، مع نماذج مبنية
لوجوه الاغراض .

وانا اذا فعلت ذلك فلن استطيع ان اُعد من يجد لي خطأ بليرة ذهبية
كما فعل الشيخ محي الدين الخياط — رحمة الله عليه — بعد ان بسط من
اسباب تواضعه ايضاً ولولا هذا التواضع لجعل للظافر بالخطأ اكثر من ذلك
(مقدمة ديوان ابي تمام ص : د) ، اما انا فاعتقد اني لو بدأت كتابة الدراسة
من جديد لاستطعت ان استدرك اشياء كثيرة منها ما سأنبه عليه من
الاططاء المطبعية — كما ندعوها ^(١) — ومنها ما سأتركه للمستقبل لانها لن
تعترض سبيل القاريء ولا تكاد تصرف معنى عن وجهه . وقد قيدت
ما كتبه بمصادره ومراجعته فمن احب التوسع هان عليه الوصول الى الاصول ،
ومن احب التثبت فما علمنا العصمة الا الله وحده .

ع. ف.



شجی فی حاوق الحادثلک مشرق به عزمه فی الترهک مغرب
 کان له دیناً علی کل مشرق من الارض او فیها کل مغرب



وہوئے مطہرہ و عذرا و عی
وہوئے و العیہ و العیہ و العیہ
وہوئے و العیہ و العیہ و العیہ

مصادر الدراسة

فيما يلي قائمة بالمصادر والمراجع التي اعتمدتها في اعداد هذه الدراسة .
على ان هنالك غيرها مبثوثة في ثنايا الحواشي ؛ وهنالك ايضاً غيرها اكثر
عدداً لم اجد حاجة الى اثباتها لقلة الجدوى في ذلك .

ديوان خ - ديوان ابي تمام ، شرح الشيخ محي الدين الخياط - بيروت
(١٣٢٣ هـ)

ديوان ، الاسود - مثله ، شرح الدكتور ملحم ابراهيم الاسود ،
الجزء الاول فقط (بيروت ١٩٢٨ / ١٣٤٧)

الحماسة ، لابي تمام (مصر : مطبعة محمد علي صبيح الكتبي) الطبعة الثانية
الطبري = تاريخ الرسل والملوك (لندن : مطبعة بريل ؛ ومصر :
المطبعة الحسينية) .

ابن الاثير = تاريخ الكامل (مصر : المطبعة الازهرية ١٣٠١ هـ)
الطبعة الاولى .

الفخري = الفخري في الآداب السلطانية والدول الاسلامية لابن
الطقطقي (مصر : المطبعة الرحمانية) .

ابن عساكر : تهذيب التاريخ الكبير (الشام)

ياقوت = معجم البلدان لياقوت الحموي (مصر ١٣٢٤ / ١٩٠٦)

الفهرست = كتاب الفهرست لمحمد بن اسحق النديم (مصر : المطبعة
الرحمانية ١٣٤٨) .

الاغاني ، اوغ = كتاب الاغاني لابي الفرج الاصفهاني (مصر ج ١ - ٥
دار الكتب ؛ ٦ - ٢١ مطبعة التقدم)

نزهة الالباء = نزهة الالباء في طبقات الادباء لعبد الرحمن بن محمد
الانباري (مصر ١٢٩٤)

وفيات الاعيان لابن خلكان (مصر)

معجم الادباء = ارشاد الاريب الى معرفة الاديب ، او طبقات الادباء
(مصر : مطبعة هندية ، الطبعة الاولى)

الموازنة = الموازنة بين ابي تمام والبحثري لابي القاسم الامدي
(الاستانة ١٢٨٧)

العمدة = العمدة في صناعة الشعر ونقده ، لابي علي الحسن بن رشيق
القيرواني (مصر : مطبعة السعادة ١٣٢٥ / ١٩٠٧)

FINLAY, George — History of the Byzantine Empire
(cf. note) .

BROCKELMANN, Dr Carl — Geschichte der arabi-
schen Litteratur, Leipzig 1901.

دائرة المعارف الاسلامية ، تحت : ابو تمام ، الحماسة .

NICHOLSON, R. A. — Literary History of the Arabs
London 1930.

زيدان ، جرجي — تاريخ آداب اللغة العربية (مصر ١٩١٢)
المقدسي ، انيس — امراء الشعر العربي في العصر العباسي (بيروت ١٩٣٢)
مجلة الكلية ، المجلد الخامس (بيروت ١٩١٤) — سلسلة مقالات
للاستاذ جبر ضومط .

شيخو ، الاب لويس — شعراء النصرانية بعد الاسلام (بيروت ١٩٢٤)

الفصل الاول

ترجمة ابي تمام

جاسم — على بين الطريق الاعظم الذي كان يمتد بين دمشق وطبرية قرية صغيرة تدعى جاسم . هذه القرية تبعد عن دمشق ثمانية فراسخ كما ذكر ياقوت^(١) ، وهي من كور حوران في كورة الجولان او الجيدور ، والجولان والجيدور كورة واحدة . وفصل المقدسي فقال^(٢) : « وتأخذ من دمشق الى الكسوة بريدن ، ثم الى جاسم مرحلة ، ثم الى فيق مثلها ، ثم الى طبرية بريداً^(٣) » .

ولعل جاسم هذه هي التي وقعها كريسو على خارطته^(٤) بين ٣٢ و ٣٨ من خطوط الطول ، و ٣٦ و ٣٧ من خطوط العرض . على ان هذه تبعد عن دمشق مسافة تزيد كثيراً عما قدر ياقوت^(٥) . ولا ندري ما قصد

(١) معجم البلدان ٣ : ٣٨ (٢) احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم (ليدن ١٨٢٧) ص ١٩٠ (٣) هذه مسافات تعرف بالتقريب ، راجع تاج العروس ٢ : ٢٧٢ ، ٢٩٨ (٤) الجمهورية اللبنانية ، سورية ، فلسطين « المطبعة الاميركية » (٥) اما في المقاييس الحديثة فانها تقع على مسافة خمسة وعشرين كيلو مترا من اذرع شمالا في غرب ؛ او على بعد نحو ٣٨ كيلو مترا الى شمالي درعا .

الاصفهانى بقوله ^(١) « عن ابي تمام » ان مولده ومنشأه بناحية منبج بقرية يقال لها جاسم . أعل هناك غير منبج التي تقع الى الشمال الشرقي من حلب ؛ ام أن هناك غير جاسم التي تقع قرب دمشق ؟

في جاسم — كان رأس الاسرة التي خرج منها ابو تمام رجلاً نصرانياً اسمه تدوس العطار كما روى ابن خلكان ^(٢) . ولهذا الاسم قراءات مختلفة : تدوس وتدرس وندوس ، ولعل أقربها الى الصواب ما قرأه مرغليوث ^(٣) فهي عنده تدوس التي ربما كانت مجزوءة من ثيودوسيوس اليونانية ^(٤) . من ذلك نستطيع أن نصل الى رأي لا يحتاج الى كثير من التحفظ في ابدائه : هو ان تدوس ^(٥) هذا كان من الجالية الرومية التي كانت في سورية قبل الفتح الاسلامي ؛ او أنه جاء الى هذه البلاد بعد ذلك .

ولد حبيب بن تدوس العطار في الثلث الاخير من القرن الثاني للهجرة . وقد روى الانباري عن تمام ابن الشاعر ^(٦) ان ذلك كان عام ١٨٨ هـ ؛ وعدد ابن خلكان ^(٧) غير عام ١٨٨ اعوام ١٧٢ ، ١٩٠ ، ١٩٢ هـ . اما ابن عساكر فاعتمد ^(٨) عام ١٨٨ وشك في عام ١٩٠ ؛ ولعل الاول من هذين التاريخين احسن انتظاماً في ترجمة ابي تمام ، وأكثر اتساقاً مع حوادث حياته المقبلة .

-
- | | | |
|----------------------------------|------------------------------------|-----------|
| (١) الاغاني ١٥ : ٩٦ | (٢) وفيات ١ : ١٥٠ | (٣) دائرة |
| المعارف الاسلامية تحت : ابو تمام | (٤) نقول اليوم « قسطة » مجزوءة من | |
| قسطنطين ، وثيو مجزوءة من ثيودور | (٥) في تاج العروس : سدوس : بضم | |
| الدين وفتحها ، رجل من طي . | (٦) ترهة الالباء ص ٢١٤ = ٣٢٥ | |
| (٧) وفيات ١ : ١٥٢ | (٨) تهذيب التاريخ الكبير ١٨ : ٢٦ ، | |

في دمشق - ثم بدا لثدوس العطار - لسبب من الاسباب - ان يترك جاسم ويتنقل الى دمشق . فلما نزلها فتح لنفسه حانوت خمر - صنعة كانت محصورة في غير المسلمين وغير العرب ^(١) - وارسل ابنه حبيباً يشتغل عند حائك (وفي رواية قزاز - بائع قز وهو الحرير) .

وقد نشأ حبيب وشب في دمشق ، ورأى فيها قوماً يحنون عليه حتى بلغ سناً تقرب من سن الرشد . في ذلك الحين بدأت مواهبه بالظهور واقتنع بالاسلام فاعتنقه ، واصبح شديد الحماسة في الدفاع عنه ، واشد حماسة في مهاجمة اعدائه . ويكفي ان تلقي نظرة واحدة على قصائده في مدح الخلفاء لتعلم ان اسلامه كان وطيداً متيناً ، وانه لم يعتقد الاسلام حباً في اجتذاب الدنيا اليه ^(٢) . ويأوح لنا أنه اسلم وحده وبقي اهله على دينهم كما يلاحظ في قوله :
 نأيت ، فلا مالا حويت ، ولم أقم فأمتع ، اذ فجعت بالمال والاهل .
 تجلت على عرضي بما فيه صونه رجاء اجتناء الجود من شجر البخل .
 عصيت شبا حزمي لطاعة جيرة دعيتي الى ان افتح القفل بالقفل ^(٣) (?)
 ويلفت من نظرنا ورود كتاب عليه بنعي أحد اهله ، وكان ذلك الكتاب موشحاً بالسواد ^(٤) . ثم ان ابا تمام غير اسم والده فجعله « اوساً » ،
 فما يدرينا اذا كان قد غير اسمه هو ايضاً ؟

في مص للمرة الاولى - وكان لا بد له من التخرج في فنه ، فذهب

(١) ابو نواس : الدراسة ص ٣٧ (٢) امرأ الشعر ١٢٥ وحاشية ٦ من ص ١٢

(٣) المعنى الملموح أنه ذهب الى مصر طالباً لأمور فكانت غنيمة في إجابته (٤) .

(٥) ديوان خ ص ١٤٣ ، س ١ : ٣٩٣

الى حمص حيث بدأ حياته الشعرية في مدح اسرة عتبة بن ابي عبد الكريم الطائي، وكان عبد الكريم شاعراً^(١) فقصى ايام تخرجه في جانبه . وكان في حمص ايضاً شاعر أبعد شهرة من عبد الكريم الطائي هو عبد السلام بن رغبان المعروف بديك الجن الحمصي، فأخذ عنه وتأثر به الى حد بعيد .

احتذى ابو تام شعر ديك الجن فاكسب منه الصنعة اللفظية وسار بها شوطاً بعيداً حتى نسبت اليه ، وحتى قال النقاد : ان ديك الجن يتبع مذهب ابي تام ، بدلا من قولهم : ان ابا تام يقتني مذهب ديك الجن^(٢) .

ولعل ابا تام اكتسب من ديك الجن شيئاً آخر هو مذهبه العلوي ، لان عبد السلام كان يتشيع تشيعاً حسناً ، ولكنه لم يتأثر بشعوبيته^(٣) ؛ وأخذ عنه ايضاً الاجادة في الرثاء^(٤) .

وفي حمص ايضاً انتسب ابو تام - في الاغلب - الى طيء بالولاء ، فقل « ابو تام الطائي » ، فان غير العربي اذا أسلم - كما هو معروف في التاريخ - انتسب بالولاء الى قبيلة عربية ، او بيت عربي ، او اسرة عربية^(٥) . ولقد كان ابو تام مقيماً في حمص مكرماً لدى الطائيين بني عبد الكريم يأخذ من جودهم ومن ادبهم فكان من أجل ذلك خليفاً ان يُنيط بهم ولأهله، ويؤثرهم على من سواهم . اما رأي الاب شيخو^(٦) في رد نسبه الى طيء فلا تقوم عليه حجة واحدة . اننا نقول ابو تام الطائي كما نقول مسلم بن الوليد الانصاري

(٢) اقرأ الاغاني ١٢ : ١٣٦

(١) بروكلجن ص ٨٧

(٤) العمدة ٢ : ١١٩

(٣) الاغاني ١٢ : ١٣٦

(٦) شعراء النصرانية بعد الاسلام ص ٢٥٦-٢٥٧

(٥) ابو نواس ، الدراسة ص ٦

وابو نواس الحكمي وبشار بن برد العُقيلي^(١) وكاهن غير عرب . اُضيف الى ذلك قول ابن خلكان^(٢) : « وقد اُفقت له نسبة الى طيء » . فابو تمام اذن كان طائياً بالولاء لا طائياً بالنسب . وجدير بالذكر ان يكون افتخاره بطيء . افا هو بامه الطائية^(٣) من جهة امها ايضاً^(٤) . ثم ليس الاتيان بدليل على طائية امه باهون من الاتيان بدليل على طائيته هو .

لم يتنصر وجود ابي تمام في حمص على التعلم والتخرج فقط ، بل ترك اصدقاء هنالك كان يحن اليهم ؛ فله في آخر مدحة في سليمان بن نصر^(٥) :
فبحقي لما خصت ابا الطيب مني بطيب من سلام .
وثنائي من قبل هذا ومن بعد ، وشكري غرض لعبد السلام .
فاما عبد السلام فهو ديك الجن ، واما ابو الطيب فابن عم ديك الجن^(٦) .

الرحيل الى مصر ٢٠٨ - ٢٠٩ - هجر ابو تمام حمص الى مصر « طلباً للمال » ، نرى ذلك ظاهراً بيننا في جميع قصائده الاولى ، وخصوصاً ما كان منها في الفخر او الوصف . لقد كان من الحق أن يذهب الى بغداد لا الى مصر بسوى انه في ذلك الحين لم يكن قد بلغ من الشعر رتبة تَلَفَّتْ الانظار . ثم ان العمل الذي أخذ يقوم به في مصر لا يدل على انه قصدها كشاعر ؛ فقد كان يومذاك حَدَّثاً يَسْتَقِي الماء في المسجد الجامع^(٧) ليكسب معاشه .

(٢) وفيات الاعيان ١ : ١٥٠

(١) الاحرار ١٢ آب سنة ١٩٣٣

(٥) ديوان خ ٢٨١ - ٢٨٢

(٤) خ ٤٧٢

(٣) ديوان خ ٢٧١

(٧) مسجد عمرو بن العاص بالقسطاط - الانباري ٢١٣

(٦) الاغانى ١٢ : ١٣٦

أفما كان باستطاعته ان يفعل ذلك في دمشق أو حمص ، او في بلد اقرب من مصر ؟

ياوح لي أن أبا تمام اراد أن يبتعد عن اهله فقد أسلم وحده ، دون اهله ؛ فلم تكن حياته من اجل ذلك هادئة في دمشق ، وهو لم يكن في حمص بعيداً كثيراً عنها ، فشد الرحال الى مصر .

ابو نمام في المسجد — كانت المساجد في صدر الاسلام وما تلاه الى زمن قريب مراكز للعلم فانتهر ابو تمام فرصة وجوده بالمسجد الجامع ، يسقي الماء ، ليزداد علماً . كان يلزم حلقات الادب خاصة فاذا طلب احد ما شربة ماء سقاه ثم رجع الى مكانه الاول يستمع الى املاء الاديب او مناقشة أصحابه . ولعل ذلك كان في السنوات الاولى من القرن الهجري الثالث ؛ وعمره يومذاك نحو عشرين عاماً . اما بيته :

وان الذي أخذاني الشيب المآتي رأيت ، ولم تكمل لي السبع والعشر
فلا يمكن ان يعني اكثر من ان شبيه بدأ قبل السابعة عشرة من عمره ؛
وليس فيه دليل على انه قال القصيدة التي منها هذا البيت يوم بلغ هذه السن .
وبعد أن سقى ابو تمام الماء في جامع مصر ، واستقى العلم وفنون القريض
ترك السقاية واتصل برجل حَضْرَمِي^(١) يدعى عيَاشَ بن هَلِيعَةَ^(٢) وأخذ
بمدحه ، ولكن عيَاشاً لم يزد على أن كان يعد ابا تمام ويمنيه ثم يطله . فما مر
عام حتى ضاق الشاعر ذرعاً وعاتب عيَاشاً بقوله^(٣) :

(١) حضرموت ، مقاطعة في جنوبي جزيرة العرب ؛ وطيء ايضاً من عرب الجنوب
(٢) هكذا يضبطها ابن خلكان ٣١٣: ١ (٣) ديوان خ ٣٩٥ - ٣٩٧

الفطر والاضحى قد انسلخا ، ولي أمل ببابك صائم لم يفطر .
 حول ، ولم ينتج نذاك ؛ وانما تثوقع الحبلى لتسعة اشهر .^(١)
 ولما لم يجد ابو تمام من عياش سوى مطل على مطل أخذ يهجو هجاء مرأ ،
 ثم هجاء ايضاً بعد موته مما لم يعرف الا عن مسلم بن الوليد^(٢) .
 أصبحت اقامة ابي تمام الآن في مصر ضنكاً ، لضيق ذات يده ؛ وضيق
 مذاهبه في بلد نشبت فيه العصيات (الفتن) :
 بصر ؛ وأي مأربة بصر وقد شعبت اكابر هاشعوب^(٣)
 وذلك في الاعم الاغلب بين عامي ٢١٠ و ٢١١ هـ^(٤) وما بعدهما .
 وكان اهله قد حرصوا على أن يرجع اليهم ، وأخذت نفسه تنازعه ؛ غير
 أن كبر نفسه كان يأبى عليه ذلك وهو الذي قال :
 ما أب من أب لم يظفر بجاجته ولم يغب طالب بالنجح لم ينجب^(٥)
 ثم يذكر حنان امه فيقول :
 ومك عدوية من سي عمرو لها حسب اذا انتسبت حبيب
 لها من طيء أم حصان نجية معشر ، واب نجيب
 تمنى أن يعود لها حبيب منى شططا ، واين لها حبيب ؟

• (١) الفطر عيد ينتهي به صيام رمضان ، والاضحى عيد يقع بعد سبعة ايام يوماً
 من عيد الفطر - اما منزل عياش فكان بالاسكندرية ، راجع الديوان خ ص ٥٠٣
 البيت الثالث ؛ وص ٣٢٣ البيت الثالث عشر

(٢) ديوان خ ٤٩٥ ، « ؟ » (٣) خ ٤٧٣ ، اي مات اكابرها

(٤) الطبري ٣ : ١٠٨٦ ، ١٠٩١ ، ١٠٩٤ - ١٠٩٩

(٥) في نهاية الارب للنويري ٩٥ : ٣ ما أب من أب . . .

ثم يبدو حينئذ أيضاً الى دمشق واصحابه فيها ؛ ويدكر ما مر عليه في دمشق بعد خمسة أعوام وشهرين كانت كلها اسي وضكاً تصدى فيه لهجر اهله واسفهم ، ثم لبذل ماء وجهه ، وبعد هذا كله آب بالحنية .

نأيت فلا ما لا حويت ؛ ولم أقم فامتع ؛ اذ فُجعت بالمال والاهل
 بخلت على عرضي بما فيه صونه رجاء اجتناء الجود من شجر البخل
 عصيت شبا حزمي لطاعة حيرة دعيتني الى ان أفتح القفل بالقفل^(١)
 وابسط من وجهي الذي لو بذلته الى الارض ، من نعلي ، لما نقتب نعلي
 وكان ورأي ، من صريمة طي . ومعن ووهب ، عن امامي ما يسلي
 فلم يك ، ما جرعت نفسي ، من الاسي ؛

ولم يك ، ما جرعت قومي ، من الشكل^(٢) .

في هذه الاثناء هاجي الشعراء في مصر وهاجوه . ولكن مقامه في مصر لم يطل بعد ذلك كثيراً بل تركها آيماً الى سورية ، وهو لا يزال شديد التأثر بالمذهب العلوي .

وظل ابو تمام في مصر الى عام ٢١٤ على الاقل لانه ادرك فيها مقتل عمير بن الوليد الباذغيسي الخراساني عامل مصر الذي قتل في ربيع الاول سنة ٢١٤ هـ في اثناء فتنة داخلية ؛ وقد رثاه وحضر للتعزية به^(٣) .

الرجوع الى سورية فالعراق — رجع ابو تمام الى سورية ؛ ولعله لم يصل اليها قبل ٢١٥ - ٢١٦ هـ فسمى ليتصل بالمأمون وهو يومذاك يتجول

(٢) ديوان خ ٤٢٢

(١) راجع ص ١١

(٣) الديوان خ ص ٣٥٩ ، ٣٦١ ، ٢٨٩ - ٢٩٠ ؛ خصوصاً ص ٣٦١ س ٣

والطبري ١١٠١:٣

في سورية بعد ان خرج الى حروب الروم وانتصر مراراً^(١) ، فلما دخل عليه مدحه^(٢) ولكنه لم يظفر منه بما يؤمل ولا بادنى مما يؤمل ؛ بل بدر من الخليفة نحو الشاعر ما صرفه عن بغداد مرة واحدة . فان المأمون كان قد انقلب على آل علي ، فاوغر صدره ان يرى ابا تمام يمدحهم ويعرض ببني العباس^(٣) . طاف ابو تمام الآن في ما بين النهرين ، وفي ارمينية ، وفي شمال سورية ؛ ولكنه قضى معظم اوقاته في الموصل . ولعله في اثناء هذا التجوال صار اليه البحري وهو يومذاك في حمص^(٤) .

في خراسان — بعد موت المأمون (٢١٨ هـ / ٨٣٣ م) امن ابو تمام ؛ وكثرت قصائده ، وبرز نجمه ؛ فلما سمع به المعتصم حمله اليه ففضى عنده مدة لم ير فيها ما يضارع طموحه فتركه وولى وجهه شطر خراسان ليمدح واليها عبد الله بن طاهر بن الحسين ، وقد اشتدت القلاقل فيها من اثر بابك ؛ وانتهر الشاعر الفرصة فاتصل بالقائد ابي دلف العجلي ، والقائد حيدر بن كلوس الافشين ، وابي سعيد محمد بن يوسف الثغري . ولعله بقي في خراسان

(١) غزا المأمون ارض الروم عدة مرات بين ٢١٥ و ٢١٧ هـ : (طبري ٣ :

١١٠٣ ، ١١٠٤ ، ١١٠٩

(٢) لعل ابا تمام لقي المأمون في دمشق ؛ اما القصيدة التي مدحه بها فهي : دمن

ألم^١ فقال سلام — ديوان خ ٢٧٩ ؛ وفي ابياتها اخا اول ما قاله الشاعر بعد رجوعه من مصر (٣) ديوان خ ١٦٢ — ١٦٤ ،

(٤) هناك خلاف بين علي لقاء ابي تمام والبحري ؛ راجع الاغاني ١٨ : ١٦٩ ؛

وفيات الاعيان ٢ : ١٣١

الى اواخر عام ٢٢٢ هـ حينما تركها عبد الله بن طاهر قادماً الى سامرا ومعه بابك الخرمي فوصلها في صفر عام ٢٢٣ هـ^(١) .

٤ في منتصف سنة ٢٢٣ هـ (٨٣٨ م) تجهز المعتصم لمحاربة الروم قاصداً عمورية^(٢) ، وهكذا لم يرجع شاعرنا الى سامرا مع المعتصم الا في مطلع سنة ٢٢٤ هـ او آخر ٢٢٣ . وما كاد الخليفة يستقر بسامرا حتى انشده ابوتمام قصيدته السائرة على وجه الدهر : « السيف أصدق انباء من الكتب » .

هنا يعترضنا امران اولها زمن ذهابه الى الحليج فانه يقول في ديوانه حج مع ابي سعيد الثغري^(٣) ؛ ونعلم من موضع آخر في الديوان^(٤) ان ابا سعيد حج حجة يغلب على الظن انها كانت بين ٢٢٢ - ٢٣٠ ؛ وهي على الاغلب في عام ٢٣٠ هـ لولا ان هنالك رواية تقول بوث ابي تمام عام ٢٢٨ . ثم نحن لا ندري اذا كانت حجة ابي سعيد هذه هي التي حج في عامها ابو تمام ؛ ام تلك غيرها ، فيكون الشاعر اذن قد حج مرتين .

والامر الاخر زمن تأليف «ديوان الحماسة» وجل ما نعلمه « ان الثلج اعترضه في همدان بفارس في اثناء ذهابه الى مديح عبد الله بن طاهر » ، وقيل بل في اثناء رجوعه ؛ فاشتغل بتأليف هذا الكتاب ريثما يذوب الثلج ويستطيع الشاعر أن يتابع مسيره . وعلى كل فان ذلك كان في اواخر سني ابي تمام ايضاً .

وفي هذه الاثناء كان الشاعر قد نال حظوة عند المعتصم وعند امراء البلاد ورجال الدولة : كاحمد بن ابي دؤاد ومحمد بن عبد الملك الزيات وجعفر الحياط

(١) انظر قصة بابك في الفصل التالي

(٢) انظر الفصل الثاني (٣) ديوان خ ٤٢٣ - ٤٢٥ (٤) خ ٢٩٣

القائد وغيرهم . وقد عني الحسن بن وهب الآن به عناية فائقة ^(١) ، وأراد أن يكرمه فطلب منه الشاعر أن يجعله في الموصل ، قيل اختارها لانه قضى فيها زمناً طيباً بعد انصرافه عن المأمون .

في الموصل — ولاد الحسن بن وهب بريد الموصل ولكنه لم يكتث طويلاً بل توفي بعد عامين من ولايته ، ومهما اختلف الرواة في تعيين سنة وفاته فلن يعدوا ربع ما اختلفوا فيه من سن ولادته ^(٢) .

مدح ابوتام الواثق وعزاه بابيه المعتصم عام ٢٢٨ هـ ، ثم مدحه بقصيدتين آخرين . غير انه توفي قبل الواثق الذي استعز به الله عام ٢٣٢ هـ . ولكن اكثر المصادر تجعل وفاته في سنة وفاة الواثق ، وعلى هذا ترى ان حياته لم تكن اقل من خمسين عاماً بكثير .

ودفن ابوتام في الموصل ^(٣) خارج الميدان على حافة الخندق ؛ وتقول العامة : هذا قبر تمام الشاعر ^(٤) . وقد بنى ابو نهشل بن حميد الطوسي قبة عليه . رثى ابوتام كثيرون منهم ديك الجن الحمصي استاذ ، والبحري تلميذه ومنهم محمد بن عبد الملك الزيات فيما روي وغيرهم ^(٥) .

صفاته واخلاقه الخاصة — ليس لدينا ما يدل على صفات ابي تمام سوى قول ابن خلكان ^(٦) : « كان اسمر طويلاً فصيح الكلام فيه تمتمة

(١) كان الحسن يكتب لابن الزيات ، ثم تولى ديوان الرسائل - الفهرست ص ١٧٧

(٢) راجع ابن خلكان ١٥٢ : ١ (٣) معجم البلدان ٣ : ٣٨

(٤) ابن خلكان ١٥٣ : ١ (٥) راجع الامدة ١ : ٤٣

(٦) وفيات الاعيان ١ : ١٥٣

بسيطة . وقد نقلها عنه كثيرون ؛ والآجلة للانباري : « وكان موصوفاً بالظرف وحسن الاخلاق وكرم النفس » . ثم ليس في ديوانه ما يناقض هذه الاحكام .

من أجل هذه التهمة اليسيرة اشترى له ابو سعيد الثغري غلاماً أديباً فصيحاً اسمه الفتح بثلاثمائة دينار ليلقي له قصائده . ولكننا نعلم أنه كثيراً ما كان يلقي قصائده بنفسه . وقيل انما كان انشاده قبيحاً ^(١) وزاد ابن رشيق فقال « وكان في حبيب حبسة شديدة اذا تكلم . . . » فقال فيه مخلص ابن بكار الموصلي ^(٢) .

يا بني الله في الشعر ، ويا عيسى بن مريم :

انت من أشعر خلق الله ما لم تتكلم !

اما اخلاقه فكانت اخلاق شاعر عباسي ؛ غير انه لم يكن مهتكم ، بل كان يأتي ملذاته في ستر .

لم تزوج ابو تمام ورزق اولاداً مات اولهم على الاغلب في حياته — وكان يومذاك وحيداً — ؛ ولكن الرواة حفظوا لنا اسم ابنه تمام فقط ، وهو الذي روى ان اياه قد توفي عام ٢٢٨ هـ .

(١) الاغانى ١٨ : ٤٢٠

(٢) المعجزة ١ : ٧٠ ، ١٨٤

الفصل الثاني

بيئة أبي تمام وخصائصه

لا اقصد بيئة ابي تمام دراسة احوال الامبرطورية العربية في مطلع القرن الهجري الثالث كما أخذ علي بعضهم لما أخرجت « ابا نواس » ^(١) . انني اذا فعلت ذلك لم أعد أحد اميرين : اما أن اضيع في شعب تلك الدراسة كما يفعل غيري ، فيخرج القاري . لايدري من هو ابو تمام ؛ واما أن اجتري . باشياء عامة لا كبير جدوى تحتها لمن يأخذ هذا الكتاب . على انني سأنتهج نهجي في « ابي نواس » فأخذ تلك العناصر والعوامل التي كان لها اتصال بينه في حياة الرجل . ومن اراد دراسة بيئة الامبرطورية العباسية في القرن الثاني ، او الثالث — وهي يومذاك مدنية العالم بأسره والتاريخ بعصوره — فلا اظنه يفكر أن يراها مجموعة في هذا الكتيب .

١ - بيئته الخاصة

انظركه الاول بالشعراء - لما ظهرت مواهب ابي تمام الفنية - وكان قد رحل من دمشق الى حمص^(١) - كان اكثر اختلاطه بآل عبد الكريم الطائي ، او بعبد السلام بن رغبان المعروف بديك الجن ، كما مريبك في الفصل الاول . ان شبان حمص وشعراءها لم يبلغوا من الخلعة والفتك ما بلغ ابو نواس وعصابتة ببغداد وضواحيها ، لقد كان الرأي السائد في حمص مناهضة امثال هؤلاء المتهتكين الذين كانوا يفسقون في ستر . وكثيراً ما كان هؤلاء الخلعاء لا ينجون من قبضة رجال الشرطة الا بعد لأي او لا يكادون^(٢) .

ومع ان مجان حمص كانوا يرتادون الميلاس^(٣) ليشربوا الخمر او ليفسقوا فان ذلك كان حياة خاصة لهم لم يجهروا بها ، ولم يتهتكوا تهتك بشار وابي نواس ومطيع بن اياس^(٤) ، وكذلك كان زعيم شعراء الشام (سورية) ديك الجن الحمصي كثير التأثم من الجهر بما كان يغلب على طبعه احياناً من حب القصف ، وهو فوق ذلك علوي شديد التقوى . فمن هنا نعلم أن ابا

(١) انظر في الفصل الاول خبر اسلامه ص ١١

(٢) راجع شيئاً من اخبار ديك الجن في الاغاني ١٢ : ١٣٦

(٣) الميلاس متنزه في حمص كثير الاشجار يتدفق فيه نهر العاصي فيكسبه جمالا ؛ وكان الميلاس متنزهاً لخمص ولا يزال ، ولكنه اليوم لمن يقصده .

(٤) راجع « ابو نواس » ص ٧ - ٩ .

تمام لم يقع في بيثة مستهتره كما اتفق لابي نواس .

هنالك ايضاً ملاحظة تصدق على كل زمن وهي ان الداخل حديثاً في دين يكون أشد تمسكاً بفروضة وظواهره من أصحاب الدين انفسهم .
وابو تمام رغب في الاسلام — تاركاً بلاده واهله ^(١) — فكان حرياً باجتنب ما يُحْمَلُ منه على غير الاخلاص .

مصر بعيدة عن فساد بغداد — وانتقل ابو تمام الى مسجد مصري سقي الماء فيه لمعاشه ، ومعنى ذلك انه كان يلزم المسجد منذ الفجر الى ما بعد العشاء — مدة قد تبلغ احياناً ست عشرة ساعة او اقل قليلاً — . من اجل ذلك كانت فرص اختلاطه بالعالم الخارجي نادرة جداً فلم تتح له فرص يقتدي فيه بغير رجال الدين واعلام الادب . كان الشاعر يلزم هذا المسجد واقفاً امام حلة تدريس ، فاذا طلب احدهم شربة ماء اسقاء ثم رجع الى مكانه الاول يختلس الرأي بعد الرأي والرواية بعد الرواية .

ولاريب عند دارس ان مصر كانت في ذلك غير بغداد تماماً . كانت بعيدة عن فجور الروم وتحنث الفرس وحانات المجوس السرية ؛ أو هي لم تكن في ذلك كما كانت بغداد ، ولم يكن فيها من يطلب الدعابة حتى في المسجد ، امثال عصابة ابي نواس الذين كانوا ينهون الدرس بحملة مجونية على الامتاز .

من اسقى ابو تمام علمه ؟ — كل ما نعرف من هذا الشأن ، كما

جاء في الفصل الاول ، ان ابا تمام حَبَّب اليه الادب عموماً والشعر خاصة فكان يستفيد مما يمر به ؛ ولم نعلم له هنالك اساتذة افذاذاً ولا غير افذاذ ، فهو في هذا الباب عصامي لامع وفر جميع اوقاته على الاستفادة فلم يترك له اجتهداه متسعاً للهو .

أثر مذهبه فيه — وكان مما اكتسبه ابوتمام في حمص مذهبه العاوي . ونحن نعلم ان اتباع المذهب العاوي اشد الناس محافظة على الفرائض والنوافل وابعدهم في الحماسة الدينية حتى ليكونوا احياناً مفرطين فيما يظنونه التقوى . فهذا ، اذن ، عامل آخر يجبر ابا تمام عن ارتياد اللهو علناً — وهذا شيء نعرفه من حياته .

٩ ضامه عند الممدومين — رجع ابو تمام من مصر فاقام عند ممدوحين — في الشام وبغداد وخراسان — وكلهم من الخلفاء والامراء ورجال الدولة الذين قاموا على انقاض حاشية الامين الفاسقة في زعمهم . افتطن ان الذين ينقمون من الامين انه اتخذ شاعراً فاسقاً كابي نواس — وهم انما اثاروا عليه هذه التهمة حتى خلعوه وحاربوه ثم قتلوه ليشيدوا دولتهم — يتساهلون في امر دينهم وسلوكهم ليُرْمَوْا بما رُمي به الذين جاؤا قبلهم ؟ كان هذا ايضاً يصد الشاعر عند عبثه اذا اشتباه .

حياته الخاصة — ولكن هذا كله لم يكن ليمنع الشاعر من اطلاق عواطفه فيما حوله في شيء من الحذر والتستر . فلقد أحب بعض الجواري ، وكثيراً من الغلمان ؛ ويظهر ان عواطفه احياناً كانت تتغلب على مبادئه فيسرف في شرب الخمر ، وانفاق المال ، وفي اتباع اهواء النفس حتى يسف

الى ما انحط اليه ابو نواس ؛ لولا انه متكتم قليلا ، وان ابا نواس متهتك مستهزأ^(١) .

العصر الشخصي : قوة نفسه وثقته بها — نستطيع ان نقول ان ابا تمام كان من الشعراء الأوّل الذين شعروا بقيمتهم الذاتية شعوراً حقيقياً . لقد رُوي عن جميع الشعراء انهم فاحروا اقرانهم ، وأشاروا الى مقدرتهم في أثناء مناقضات متباينة المرامي ؛ ولكن ابا تمام — في اعتقادي — اول من أخذ بالنظر الى نفسه ثم الى شعره مؤكداً صفاتها العالية . انه لا يكتفي ان ينشرهما ، بل يتخذ منها موضوعا يتابعه في مواضع كثيرة من قصائده . تراه يقول من مدحة في عياش بن لهيعة :

— شجى في حاوق الحادثات مشرق به عزمه ، في الترهات ، مغرب^(٢)
 كأن له ديناً على كل مشرق من الارض ، او ثاراً لدى كل مغرب .
 — وان زكبتُ مجد في حزونته سهلته ، فكأنى منه في لعب ،
 مقصراً خطراتِ الهم في بدني علما باني ما قصرت في الطلب^(٣) .
 وغيرها مما تجده ايضاً في قصيدته : اهن عوادي يوسف وصواجه^(٤) .

وقد أجهل الاستاذ المقدسي^(٥) ذلك فإشار الى « صبره على المشاق لباوع المنى ، وشدة اعجابه بنفسه . . . فاذا قرأت ديوانه رأيت مفعلاً بما يدل على

(١) راجع ايضاً الاغاني ٢١ : ٣٤ (٢) الترهات : القفار ، خ ٢٥
 (٣) خ ٤٧١ (٤) ديوان خ ٤٣ ، س ١٢٤ وغيرها (٥) امراء
 الشعر ١٧٧ — ١٧٨

انه نشأ مغامراً في سبيل المال والجاه . وقد زادته كثرة اسفاره عزماً ومضاء . . . »

فلا عجب ان كان ابو تهم ، اذن ، واثقاً بنفسه الى حد الغرور احياناً ؛ يفرض ما يقوله على الناس فرضاً ، ويعتقد آماله قبل أن تقع . ولا تحملن ذلك منه على العفو او العيث فقد جاء به في اعظم مواقفه جداً ؛ وقد رأينا مثل ذلك في اسلوب عبد الله بن المقفع ، فهو ايضاً يفرض حكمه على الناس فرضاً . لنضع الى ابي تمام يقول :

ولقد رجوت ، فهل لديك بحاجة ،

وعلمت انك لا تحيب رجائي .

اني امتدحتك لا لفائدة ، ولا همي جزاء مدانحي بجزاء ؛ لكن اروم به احتياطك ؛ انه فيا لديك لبغيتي ورجائي . فهو يقول : انالا أمدحك طمعاً بالجائزة ، ولا « تملقاً » كما يفعل الشعراء ، ولكن لأريك عظمة شعري ^(١) . . . ثم انظر قوله « انا (من) عرفت » ، او قوله :

واني لارجو عاجلا ان تردني مواهبه بجرأ ترجى مواهبي .

وسنرى في مكان آخر ان « آراءه لم تشبهه » ، وانه « فاق فطنة الفيلسوف » ^(٢) .

وقد انتقل هذا الروح الى شعره ايضاً ففخر به وفضله ، وقارنه بصلة الممدوح ، ثم قرن نفسه بالممدوح :

— سأجهد حتى أبلغَ الشعرَ شأوه ،
 فان انا لم يَحْمَدْكَ عَنِّي صاغراً
 — فالبسني من امهات تلاده ،
 — ما خالدي دون ايوب ، ولا
 خذها مثقفة القوافي ؛ ربهـا
 حذاء تملأ كل اذن حكمة
 كالطعنة النجلاء من يد نائر
 كالدر والمرجان ألف نظمه
 ويندر ان ترى له مدحة لم يفتخر فيها بنفسه وشعره^(٥) :

وما كنت ذا فقر الى صلب ماله ،
 ولكن رأى شكري قلادة سودد
 فما فاتني ما عنده من جباهه ،
 ولا فاته من فاخر الشعر ما عندي^(٦) .
 — بقواف هن البواقي على الدهر ، ولكن اثنان من مواض^(٧) .
 ثم لا يذهبن بك الظن الى انه يدعي ذلك ويتظاهر به ، فقد رُكِبَ في
 نفسه ؛ روى الاصفهاني^(٨) ان ابا تمام انشد عبد الله بن طاهر قصيدته « آهن

(١) خ ١١٩ (٢) خ ٩٥ (٣) خ ٨٤ = هذا بيت من قصيدة يعتذر
 بها الى قاضي الدولة احمد بن ابي دواد ، ويستشفع بخالد بن يزيد فيقول : مثلي في
 الاعتذار اليك مثل يزيد بن المهلب لما استجار من الوليد بايوب بن سليمان بن عبد
 الملك ، وبعبد العزيز بن الوليد فشفعا له . وما خالد الذي يشفع لي باقل منهما ، وما
 اذا باقل من يزيد بن المهلب — امراء الشعر ص ١٧٩ (٤) حذاء : قارصة
 (٥) ص ١٧٩ - ١٨٠ (٦) ديوان خ ١٣٢ - ١٣٣ (٧) ديوان خ ١٨٨
 (٨) الاغانى ١٥ : ٩٩

عوادي يوسف وصواحيه ؟ » فنثر عليه الف دينار ، فلم يمسّ منها شيئاً بل تركها للغلمان يلتقطونها حتى وجد عليه ابن طاهر ، وقطعه زماناً . ثم قلب ديوانه حتى تصل الى هذه الابيات فتحسب ابا تمام انما يتكلم عن نفسه لا عن المدوح :

ماذا ترى فيمن رآك لمدحه	اهلاً، وصارت في يديك مصائرُه ؟
قد كابر الايام حتى كذبت	عنه ^(١) ، ولكن القضاء يكابرُه .
لاتنس من لم ينس مدحك، والمنى	تحت الدجى يزعم انك ذاكرُه .
بكرّر ، فقد بكرت اليك بمدحه	غررُ القصائد ؛ خير امر باكرُه .
لا شيء احسن من ثنائي سائراً ،	ونداك في افق البلاد يسايره ^(٢) !

٢ - العناصر المساعدة

دخل ابو تمام بغداد بعد وفاة المأمون ، وقد لبست من الثقافة الاجنبية ثوباً قشياً بفضل سعيه لترجمة كتب الاغريق خاصة . ويجسن هنا ان نقول : ان ابا تمام جاء بعد رده من الزمن فرأى الكتب منتشرة ، والثقافة شائعة في الناس . بدأ الخلفاء بالترجمة منذ ايام المنصور (١٣٦ - ١٥٨ هـ) ، ولكن الثقافات المتضمنة في الكتب المترجمة اقتضت وقتاً حتى انتشرت بين الناس — ولا حاجة الى القول ان فقدان الطباعة كان من اهم الاسباب في بقاء هذا الانتشار . —

(١) كذبت عنه : انثنت عنه وجبت ، ومعنى البيت ان الشاعر غالب الايام فقهرها ؛ ولكن قضاء الله هو الذي يغالبه الآن .
(٢) ديوان خ ١٥٦

اما الجوالي اليونانية والفارسية والهندية، سواء منها التي اعتنقت الاسلام — قديماً او حديثاً — او التي بقيت على اديان ابائها ، فانها كانت كتباً حية في المجتمعات وحلقات الادب والعلم والجدل . واذا كان بشار بن برد وابونواس وابو العتاهية ومعاصروهم قد رأوا هذه الحركة في اولها ، وتعرفوا اليها في طفولتها فان ابا تمام قد شهد عنفوانها وعاش في ابدانها .

الثقافة ابو مانبه — هزم النفوذ الفارسي في معركتين : الاولى يوم قتل الرشيد بالبرامكة واتباعهم ومواليهم وصنائعهم ، فقضى على نفوذ الفرس في الحكم ، وقلص ظلمهم الوارف عن قصر الخلد ؛ والثانية يوم ترك المأمون مرو واتى الى مدينة السلام ، ثم ما عثم فيها ان اعلن ترك الحضرة والرجوع الى السواد : شعار بني العباس ؛ فقضى على امل الفرس المستتر وراء النظرية العلموية في الخلافة ؛ غير ان ذلك لم يتعرض للثقافة الادبية بشيء . الى جانب هذه الثقافة الادبية الفارسية ازدهرت ثقافة علمية اغريقية . فبينما كنت ترى الناس يستمعون الى الغناء الفارسي او المنقول عن الفارسية ؛ او تراهم يصغون الى قصاص الخرافات الفارسية او يتفقهون بالادب الفارسي والكياسة الفارسية ، اللذين استخرجهما ابن المقفع وامثاله ، كنت تراهم يتجادلون في الفلسفة اليونانية ويتناقشون في كتب الاغريق العلمية . وكان لهند ايضاً ثقافة رياضية في بلاد الاسلام كلها . وان نعجب فعجبنا من ان العرب لم يستفيدوا من أدب اليونان الفني .

غير ان اظهر هذه الثقافات في شعر ابي تمام الثقافة اليونانية ، ولا عجب فقد كانت الزي السائد بعد المأمون كما ان الثقافة الفارسية كانت الزي في عصر هرون الرشيد . ولعل هذه الثقافة كانت اقرب الى عقلية ابي تمام —

ربما لصلة نسبه بالروم ، وهو لم يتحرر من بيئته اليونانية الا يوم اسلم دون افراد أسرة على ما رأينا .

ثم توفي المأمون وترك وراءه نزعة من الحرية العقلية لم يعرفها الاسلام من قبل ولا عرفها من بعد ، واطنه ان يعرفها الى الابد . لقد تناولت هذه النزعة الدين باوسع مظاهرها وفي اقدس مظاهره كالقول في خلق القرآن ، وجدال اهل الكتاب بلا قيد ولا رقيب ، ثم التفكير فيها حفظه الدين من الروايات . وحسبك في هذا المقام ان تعرف ان هذه كانت من قبله كفرا او اقرب شيء الى الكفر . ولا ريب في ان ابا تمام احتك بهذه ايضا — وهو الشاعر العالم — واستفاد منها حتى ظهر بعض اثرها في حياته وشعره .

الزندقة والشعوذة — يهمننا من هاتين ما يمكن ان يتصل بحياة ابي تمام . اتهم حبيب بن اوس بالزندقة ككثيرين غيره ؛ والزندقة يومذاك تهمة سياسية او دعوى على رجل اتهم بالايس الدين في اساسه . فيكفي ان يكون الانسان متهكاً في قوله دون عمله حتى يرمى بالزندقة . وقد يكون ملحداً كافراً فلا يسمونه الا زنديقاً . من اجل ذلك ترى ان هذه الكلمة مطاطة باستطاعتك ان تجمع فيها الاضداد والقرناء . وقد اتهم ابو تمام بها ، قيل لانه لم يصل الظهر في يوم بارد .

اما الشعوبية فلم تظهر في شعر صاحبنا ولا في حياته ؛ ليس ذلك فقط بل انه هجا من اتهموا بها وبالزندقة هجاء مرأ . فلا عجب ان بحثنا فيها عند الكلام على هؤلاء .

الاممات والفنوح — لم يمثل الناحية القومية الدينية بمعناها الواسع

حتى ذلك الوقت شاعر كافي تمام . ثم جرى كثيرون على اثره وحاولوا ان يلحقوا به ، ولم يبلغه ويتقدم عليه غير شوقي .

كان فخر الجاهلي بقبيلته فحسب لا يعدو بضعة اباء خوفاً من ان يلتقي بجذ قبيلة الشاعر الذي يفاخره ؛ وجاء العصر الاموي فكان الشعر ، الذي نسميه نحن هجاء سياسياً ، فخرأً محدوداً وشتائم كثيرة لا يعدو ايضاً قبيلة واحدة ، او اسرة واحدة . اما ابو تمام فقد مدح الخليفة ، وهو رأس الامبراطورية العربية الاسلامية ؛ ومدح رجال الخليفة — واكثرهم عرب — اذا كانت سيرتهم واعمالهم في رضى الخليفة ، كما سئى عند الكلام على فنون ابي تمام . ولقد اجاد الشاعر في جميع هذه القصائد اجادة كبرى ، وخلق منها في ديوانه ناحية بارزة تنجلي فيها نفسه الكبيرة سيفاً مسلواً على اعداء الخليفة الداخلين والخارجيين ، ومنطقاً فصيحاً ، وشعراً فخماً . وانوجز الان الكلام على خمسة من هذه الاحداث .

١ . العلو بون — يظهر لنا عطف ابي تمام على العلويين جلياً في قصائد كثيرة حتى اشرنا في الفصل الاول الى ميله الى هذا المذهب ، فلا عجب ان ملأ به شعره . غير ان سياسة العباسيين — منذ ايام المأمون ايضاً — كانت قد تبدلت نحو العلويين^(١) .

خوج محمد بن القاسم الزبيدي على المعتصم ، فانتقل من الكوفة الى خراسان واقام بالطالقان يدعو الى آل البيت . تمكن عامل عبد الله بن طاهر وهو امير خراسان ، ان يأخذ محمداً ويرسله الى عبد الله ، وارسله عبد الله

(١) راجع قصيدته : أظنية حيث استنت الكتب العفر خ ١٦١ — ١٦٦

بدوره الى المعتصم الذي حبسه بسامرا سنة ٢١٩ ؛ ثم ان محمداً احتال في ليلة الفطر ، وقد اشتغل الناس بامر العيد ، للهرب ولم يعرف احد مكانه بعد ذلك . . . (١)

ب. بابك الخرمي — الخرمية « دين الفرح » ، ويعمل اتباعها على الاخذ بالملذات وعلى « الاباحية » فيتزوج الرجل امه او اخته او ابنته ؛ ويؤمنون بتناسخ الارواح . ولهم ناحيه ثانية في مذهبهم هي كره العرب وكره دينهم ، والعمل على ارجاع المزدكية — دين الفرس القديم — ؛ على ان هذه الحركة لم تقو الا بعد اتصالها ببابك في حديث يطول . فلما قويت قام بابك يحارب المسلمين معتصماً بجبال البَذّ منذ ايام المأمون . وقبل أن يتوفى المأمون أخذ في وصيته على أخيه المعتصم عهداً لزاماً بان يتغلب على بابك ولو أنفق كل ثمين . ولقد صدع المعتصم فلم يغز الروم ، ولم يوجه جيشاً الا الى حرب بابك حتى انتصر عليه (٢) .

اثارت هذه الحادثة حمية ابي تمام الدينية وخلدها في قصائد كثيرة من

(١) تاريخ الكامل ٦ : ١٨٠

(٢) طالت حركة بابك عشرين سنة وروي انه قتل في اثناها ٢٥٥٠٠٠ انسان ثم تغلب الافشين على بابك واستخلص من في يديه من المسلمين واولادهم . وقد كافأ المعتصم الافشين بعشرين مليون درهم (نحو نصف مليون ليرة ذهبية) . . . وادخل عليه الشعراء بمدحونه وامر لهم بصلات ايضاً وذلك في ١٥ ربيع الاول سنة ٢٢٣ فقال فيه ابو تمام قصيدته : « بذ الجلال البَذّ فهو دفين » (الطبري (مصر) ١٠ : ٢٣٣ ؛ خ ٣٢٦ — ٣٢٨ ؛ تاريخ الكامل ٦ : ١٣٥ ، ١٨٢ ، ١٨٩ — ١٩٣ . والفهرست ٤٨٠ — ٤٨٢

عيون قصائده في شعر يتدفق حماسة وبلاغة ، ثم قدم الافشين ببابك الخرمي على سامرا سنة ٢٢٣ هـ فقتل بابك فيها وصاب .

م . فتح عمورية — كان الروم قد انتهزوا فرصة اشتغال المسلمين بحروب بابك فجعاوا يغيرون على البلاد الاسلامية ؛ او يؤوون اليها بعض الثائرين على سلطة بغداد . وقيل اسر بابك أغار ثيوفياوس ^(١) ، ويسميه العرب : توفيل بن ميخائيل ، على زبطرة : مولد ام المعتصم ، وقيل بل مولده ؛ وخربها ثم مثل باهلها . في هذه الاثناء اتصل بالمعتصم ان امرأة هاشمية صرخت ، وقد هاجمها العاج : « وآمعتصاه » . فصرخ وهو على سريريه : « لبيك » ونهض من ساعته ، واستعد اعظم استعداد (٢٢٣ هـ) .

لقد خرب توفيل مدينة لها ذكرى في قلب المعتصم ، فكان بدهياً ان يقابله المعتصم بمثل عمله ؛ فسأل عن اعظم مدينة عند الروم ، فقيل هي عمورية ؛ ولعل لذلك سبباً آخر هو ان عمورية بلد الدولة الحاكمة ومولدها واليها تنسب . فانت ترى اذن ان فتح عمورية مغامرة شعرية جميلة فوق ما انطوت عليه من الالهية التاريخية التي حملت الروم ذلا تتلمسه في قصيدة فتح القنوح ^(٢) . ولا غرو ان اذكى هذا الانتصار نفس ابي تمام زمناً طويلاً .

م . مازيار — كان مازيار هذا قد اظهر الخلاف على امير خراسان عبد

Cf. Finlay, Hist. of Byz. Emp. ch. III. Sect. ii (١)

(٢) السيف اصدق انباء .

الله بن طاهر ؛ وفي عام ٢٢٤ هـ خرج عليه بطبرستان وامتنع عن ارسال الخراج . لكن تمكن عبد الله بواسطة احد عاله من ان يقبض على مازيار ويرسله الى سامرا ، فيقتله المعتصم عام ٢٢٥ هـ .

هـ . مروق الافشين — لما ظهرت حركة بابك أرسل الافشين لقتاله ؛ ولكن الافشين جعل يطاول بابك ، فاثارت هذه المطاولة شكاً حوله ، وظنّها الكثيرون محاباة للثائر وعطفاً عليه . ثم تتابعت سلسلة من الادلة جعلت الافشين متها لى الخليفة : منها ارساله الاموال الى اشروسنة (بين نهر سيحون وبلدة سمرقند) سرّاً ، قيل لتقوية الدعوة الى الدين المجوسي ، ثم ارجاعه . وقد ثبت ان اهالي اشروسنة كانوا يبدؤون كتبهم الى الافشين بهذا العنوان : « الى اله الالهة . . . » وانه كان لدى الافشين كتاب في الديانة القديمة مُحَمَلٌّ بالذهب والجواهر ؛ وانه كان يكاتب اتباعه ويكاتبونه متربّصين بالعرب الدوائر . وزاد في النعمة على الافشين سعيه بعبد الله بن طاهر ، وطمعه بامارة خراسان مكانه .

كل هذه البينات تجمعت لتدين الافشين فلم ير المعتصم بدا من قتله ؛ ولكن السياسة اضطرته الى تجاهل امره حتى ينجلي الموقف في خراسان ؛ فتركه اميراً عاماً للجند في المشرق ، ولكن جعل على بعض اقسام الجند قادة يطمئن الى ولائهم : منهم ابو سعيد محمد بن يوسف الثغري ، وابو دُأَف العجلي ، يساعدهما عبد الله بن طاهر والي خراسان .

وتغلب المسلمون على بابك ولم يقتل المعتصم الافشين ، لحرصه على الاستفادة من مواهبه العسكرية في حرب الروم ايضاً بعد ان عزم على مهاجمة عمورية . فلما فتحت عمورية وغلبت الروم ؛ ولما خضد الخليفة شوكة الثائرين

في المشرق ومكنه الله من اعناقهم ، لم يبق للمعتصم في الافشين مأرُبة فقتله وصلبه ، ثم احرقه . فاضاف ابو تمام الى قلائده الخالدة قِلادة جديدة ، وانشد المعتصم مِدحة جديدة يبدأها ببسط تهم الافشين ، وينهيها بطلبه الى الخليفة ان يعقد لابنه الواثق ولاية العهد ؛ وذلك عام ٢٢٥ هـ ^(١) :

الحق ابلج ، والسيوف عَوار ^(٢) ، فحذار من اسد العرين ، حذار !
ومنها ، يصف النار التي أحرقت بها الافشين :

ما زال سر الكفر بين ضاوعه حتى اصطلى سرّ الزناد الواري :
نارا يساور جسمه من حرها لب ، كما عصفت شق إزار .
لله من نار رأيت ضياءها ، ضاق الفضاء به على النظار .
مشوبة ، رفعت لاعظم مشرك ما كان يرفع ضوءها للشاري ^(٣) .
صلى لها حياً ؛ وكان وقودها مَيِّتاً ؛ ويدخلها مع الكفار .
وكذاك اهل النار في الدنيا ^(٤) هم ، يوم القيامة ، جُلّ اهل النار .
يا مشهداً صدرت ، بفرخته الى امصارها القصوى ، بنو الامصار ^(٥) .

(١) ابن الاثير ٦ : ٢١٠ ، خ ١٥١ - ١٥٥ .

(٢) ابلج : ظاهر ، واضح ؛ عوار « ج عارية » مجردة .

(٣) لم يكن الافشين يضيء نارا يجتدي بها السائرون في الليل : اوفد الخليفة

لاحراق الافشين نارا ما كان الافشين يوقد مثلها لنفع الناس . (٤) عبدة النار .

(٥) ان الذين اجتمعوا من البلدان المختلفة ليروا مقتل الافشين راحوا فرحين

ينهبون بذلك اهل بلادهم .

- رمقوا اعاليَ جذعه فكأنفا وجدوا الهلال عشيّة الافطار ^(١) .
 كانت شماتة شامت عاراً ، فقد صارت به تنضو ثياب العار ^(٢) .
 ولقد شفى الاحشاء من بُرحائها ان صار بابك جار مازيآر ^(٣) .

٣ - خصائص ابي تمام المعنوية

يعلم دارسو اللغات خاصة ، ودارسو الفلسفة والادب ، ان الشعوب تختلف في اساليب تفكيرها . نعلم ذلك مما نراه عندها من بناء جملها ، وتراكيب كلامها ، وانواع مجازها وكناياتها واستعاراتها - كل ذلك حسب بيئتها وتطورها وثقافتها . وكذلك افراد الامة الواحدة فانهم يختلفون ايضاً في طريقة تفكيرهم - قوة وضعفاً ، او بعد غور وقرب متناول - ؛ كل حسب بيئته وثقافته واستعداده الفكري والطبيعي .

لم تبرز هذه الظاهرة في شاعر عربي بروزها في ابي تمام ؛ حتى قال النقاد عن شعره انه معتد ؛ وعن معانيه انها مقتسرة مأخوذة بعنف . على اننا لو انعمنا النظر لوجدناه يفكر بطريقة صحيحة ، ولكنها بعيدة عن مألوف الرجل العادي . ان ابا تمام مثقف حافظ ، مطلع على الفلسفة اليونانية ؛ وهذه

- (١) حينما نظروا الافشين مصوباً الى المذبح سروا كأنما كان غدهم عيداً : اي كأنهم رأوا هلال شوال الموذن بانتهاء صوم رمضان ويجول عيد الفطر .
 (٢) كان الشماتة لاتايق بصاحبها وتحسب عاراً عليه ؛ واما الآن فان الشماتة بالافشين صارت تدفع العار عن اصحابها « لانهم لو لم يفعلوا لعدوا من مناصريه » .
 (٣) راجع ص ٣٢

عناصر كلها تتضافر على صبغ تفكيره بصبغة تظهره غريباً في نظر القارىء العادي ، وليس هو على الحقيقة كذلك . ثم أي فضل لشاعر — او لأي رجل آخر — اذا كان يحرك لسانه بما انتبته قرائح الناس ؟

ولقد صدق ابن رشيق حين قال ^(١) : « وانما سمي الشاعر شاعراً لانه يشعر بما لم يشعر به غيره ؛ فاذا لم يكن عنده توليد معنى ، ولا اختراعه . . . او صرف معنى عن وجه الى وجه آخر كان اسم الشاعر عليه مجازاً لا حقيقة ؛ ولم يكن له الا فضل الوزن ، وليس بفضل عندي ، مع التقصير . . . » ثم قال : « وانما السبق والشرف في المعنى ^(٢) ! » .

واليك هنا مثالين من تقصير الناس في فهم معاني ابي تمام . خطأ الآمدي ^(٣) ابا تمام في قوله :

فاويت بالمعروف اعناق المنى ، وحطمت بالانجاز ظهر الموعد .

فزعم استعارة الظهر للموعد قبيحة ، والمعنى المستخلص من حطم الظهر رديئاً ^(٤) ؛ ولا ارى الا ان ابا تمام تخيل ان ينجز الانسان وعداً قبل ان يقطعه ثم يستغني عن الوعد مرة واحدة ، فيعطي المعتفين حالاً ، فلا يجري الوعد على لسانه . او كل ما في نقمة النقاد منه انه نظر الى المعنى من حيث لم يتعود الناس ان ينظروا اليه من قبل ، ودليلنا على ذلك قول ابي تمام نفسه :

يرى الوعد اخزى العار ، ان هو لم تكن مواهبه تأتي مقدمة الوعد ^(٥) .

وخطأ الآمدي ايضاً ^(٦) في قوله :

(١) العمدة ١ : ٧٤ (٢) ١ : ٥٧ (٣) الموازنة ٩٥ (٤) انظر شرح الاسود ١ : ٢٦٥ ؛ امراء الشعر ١٨٧ (٥) خ ١٣٠ (٦) ص ٩٩

يقظ ، وهو أكثر الناس إغضا ، على نائل له مسروق .
 وكل ما في الامر ان الآمدي لم يتعود ايضاً ان يرى النائل (العطاء)
 مسروقاً . ان ما يكون مسروقاً ، في رأيه ، فالمال مطلقاً ؛ اما ما يعطيه
 الرجل فلا يمكن ان يكون مسروقاً . ولا ريب عندي أبداً في ان ابا تمام
 قصد ان الشاعر يأخذ الممدوح بالشعر الجميل حتى يسلبه مالا ما كان ليعطيه
 اياه لولا هذا الشعر .

وعلى كل فلنذكر ان الآمدي — جد متحامل على ابي تمام ، جد محاب
 للبحثري ^(١) .

شغف ابي تمام بالاعراب — لاشك في صدق ما اجراه الآمدي
 على لسان صاحب ابي تمام ^(٢) : « انا اعرض عن شعر ابي تمام من لم يفهمه
 لدقة معانيه وقصور فهمه عنه ؛ وفهمه العلماء والنقاد في علم الشعر » . وكان
 مثال ذلك ماجرى ^(٣) يوم قصد ابو تمام عبد الله بن طاهر وانشدته : « اهن
 عوادي يوسف وصواحيه ؟ » . فقال له كاتبها عبد الله : « لم تقول ،
 يا ابا تمام ، ما لا يفهم ؟ » فاجابها فوراً : « لم لاتفهمان ما يقال ؟ » فكان
 هذا مما استحسن من جوابه .

وبينما تجدد في موازنة الآمدي حواراً مساقاً ، فيه « لا يدفعون ابا تمام عن
 لطيف المعاني ودقيقها ، والاعراب فيها والاستنباط لها . . . وان اهتمته
 بمعانيه اكثر من اهتمته بالفاظه ، على كثرة غرامه بالطباق والجناس ^(٤) » ، تراه

(٢) الموازنة ص ٨

(١) الاحرار ٢٢ تموز ، و ٥ آب سنة ١٩٣٣

(٤) ص ١٧٠-١٧١

(٣) الموازنة ص ٩

يقول : « و ابو تمام يتبهرج شعره عند التفتيش والبحث ، ولا تصح معانيه على التفسير والشرح ^(١) » . فأحرر بنا عند ذلك ان نترث في الميل الى ارائه ؛ وان كنا لاندفعه ولا ندفع سواء عن الصواب اذا قال : ان ابا تمام كان يُوغل بمعانيه او يغالي .

ولقد انصف كتاب امراء الشعر ^(٢) في نقل رأي ابن رشيق ^(٣) « فاما حبيب فيذهب الى حُرونة اللفظ وما يلا الاسباع منه مع التصنيع المحكم طوعا (١) وكرها ؛ يأتي للاشياء من بعد ، ويأخذها بقوة » . . .

« ويراد بذلك هُيامه بالغريب من المعاني التي يُحتاج في تفهمها الى تأمل ومشقة . تراه يغطي مقاصده بشيء من الابهام ، فاذا كشفته بان لك جلال خلاب يستهويك ويزيدك ترحُّلاً بها . ومن هنا (تنشأ) هذه الصعوبة التي يعاينها من يطالع ديوانه ، فانه قد يقف حائراً امام طلاسمه وغموض معانيه ، حتى اذا راضت له بالدرس والتفكير رأى فيها ما يلائمه من صور جميلة ومعان رشيقة ^(٤) » .

واراني لا اميل الى قول ابي هلال العسكري : « كان ابو تمام يتتبع وحشي الكلام ويدخله في شعره » لما في ذلك من قصر النظر في الامور . أفترى ابا تمام ينظم القصيدة ثم يبذل كلامها السهل المألوف بالغريب الحوشي ؟ لا اعمرى ، والا لكانت كل قصائده كذلك . غير اني اعتقد ذهاب الناس

(١) ص ١٥ (٢) للاستاذ انيس المقدسي ص ١٩٣ - ١٩٤

(٣) العمدة ١ : ٨٤ - ٨٥ (٤) امراء الشعر ص ١٩٤

(٥) كتاب الصفاعتين ، مستشهد به في امراء الشعر .

يقول ابن وشيق القيرواني ^(١) « ولالشعراء الفاظ معروفة ، وامثلة مألوفة لا ينبغي للشاعر ان يعدوها ولا ان يستعمل غيرها » .

فانت ترى اذن في هذه الفقرة عقلية بعض الناس بجلاء : انهم يحبون ما ألفوه ولو كان غثاً بارداً ، ويعرضون عما يحتاج في جنه الى قليل من التعب . ترى المجلة التي تمسخ الحقائق وتبلا صفحاتها باشياء تافهة شوهت من كتب التاريخ او المجلات العلمية تباع في الاسواق بالالف ؛ بينما الكتب والمجلات التي تقدم في كل عدد من اعدادها عصاره اراء كبار المؤلفين والباحثين والعلماء والرواد لا تلاقي رواجاً يكفل متابعة جهادها . ذلك لأن الرجل العامي يفضل ان يسمع قصة يعرفها علي ان يستمع الى قصة جديدة يجهد عقله في فهمها او حفظها ؛ وقدماً قالت العامة : « قديم تعرفه خير من جديد تتعرف اليه » .

كل شعر يبدأ نهضة فهو غامض : كذلك الشعر الجاهلي الاول ، فشعر امرئ القيس اكثر غموضاً من شعر زهير للزمن الذي بينهما ؛ وشعر الطرماح اشد تعقداً من شعر جرير ! وكذلك شعر مسلم بن الوليد احياناً ، وشعر ابن الفارض ؛ وكذلك ايضاً شعر شكسبير والروائيين الافرنسيين الاول وشعر غوته سيد شعراء المانيا . ولعل اشعار فيرجيل ودانتي لا تخرج على حدود المبدأ الذي نتخذه .

أفنعجب بعدئذ ، اذا رأينا غموضاً في بعض شعر ابي تمام وهو الذي اوجد طريقة الشاميين ، وكان اول من حلّى الشعر العربي بالصناعة اللفظية المقصودة ؟

فمن اغراب ابي تمام ، اذن ، قوله :

- وقد كانت الارماح ابصرن قلبه فارمدها ستر القضاء الممدد ^(١) .
- رقيق حواشي الحلم ، لو ان خلقة بكفك ما ماريت في انه برد ^(٢) .
- قد كان عذرة مغرب فاقتضاها بالسيف فحل المشرق الافشين ^(٣) .
- وركب يساقون الركاب زجاجة من السير لم تقصد لها كف قاطب ؛
- فقد اكلوا منها الغراب بالسرى ، وصارت لهم اشباحهم كالغوارب ^(٤) .

التشبيه والاستعارة — ويتبع اغراب ابي تمام في المعاني عموماً ، بعد تشابهه واستعاراته . ولكن لا يعزبن عن بالك ماورد في مكان آخر من

(١) خ ١٠٢ — يتخيل الشاعر هنا ان للرماح عيون ابصرت المقتل « من بابك الحرمي » ولكن قضاء الله الذي لم يحن بعد مد بين عيون الرماح وبين قلب بابك ستر امريضا فاضلت المقتل « ونجا بابك » .

(٢) خ ١٢١ — يخبرنا ابو تمام ان الممدوح « محمد بن الهيثم » لين العريكة طيب النفس ، حتى لو ان اخلاقه تجس باليد لما شئت انسان في انما ثوب من الحرير رقيق .

(٣) خ ٣٢٦ — ما زالت مدينه البذ « معقل بابك » بكر محصنة بعيدة المنال حتى استطاع القائد الافشين (التركي « المشرقي » ان يكون اول بان بها « متزوج بها = اول من اخذها عنوة » .

(٤) خ ٤١ : امراء الشعر ١٩٦ - ١٩٧ — يجعل ابو تمام السير خرا صرفا « غير ممزوجه » يديرها الركبان بينهم فتورشم شدة في سيرهم من غير تفكير بمآل ؛ ثم ان اجهاد النياق بالسير قد اذاب سنامها ؛ وكان السير الكثير ايضاً قد اخلهم هم انفسهم فاصبحت اجسامهم النحيلة كأنها هي سنام الابل .

هذه الدراسة : ذلك ان الناس يميلون الى ما ألفوا ويصدون عما لم يعرفوا .
وقد صرح بذلك الأمدى ^(١) فقال عن ابي تمام : « ولو . . . اقتصر من
القول على ما كان محدواً حذو الشعراء المحسنين . . . لظننته كان يتقدم عند
اهل العلم بالشعر اكثر الشعراء المتأخرين » . وعلى هذا انتقد له « رقيق حواشي
الحلم » لانه ما علم احداً من شعراء الجاهلية والاسلام وصف الحلم بالرقعة ،
وانما يوصف الحلم بالعظم والرجحان والثقل والرزانة . . . » ^(٢) وانتقد له :
من الهيف لو ان الخلاخل صيرت لها وشها جالت عليها الخلاخل .
فقال « وهذا الذي وصفه ابو تمام ضد ما نطقت به العرب . . . » ^(٣)
لأن العرب تجعل الخلاخل ضيقة في الأرجل ، وتحب النساء البدينات . وانتقد
له « عرض الدهر » ، « والزمان لا عرض له على الحقيقة » ^(٤) .
واخذوا على ابي تمام من استعاراته قوله :

فضربت الشتاء في اخذه
ضربة غادرته قوداً ركوبا ،
وقوله : « يادهر قوم من اخدعيك » ^(٥) . فالأمدى لا يعترف
للاشتاء باخدعين « عرقا العنق » وانما هما للبشر او للاعياء على الأقل .
ثم ان الاستاذ ضومط يساير الأمدى بعض الشيء فيقول : « انه (اي ابا تمام)
يصور الشتاء بعيراً صعباً وقد ركبه الممدوح فعاصى عليه في سيره فضربه
ضربة شديدة في كل من اخدعيه فذل واطاع ؛ . . . ان الاستعارة
بالكناية في البيت بعيدة عن المألوف ، ويصعب على الذهن تصورها » .
فانت اذا رأيت الاسس التي ، اتخذها النقاد لنقد شعر ابي تمام ، علمت انها

(١) الموازنه ٥٦ (٢) ص ٥٧ ثم الى ص ٥٩ (٣) ص ٥٩

(٤) ص ٨٢ (٥) الموازنه ض ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١١٠ ؛ مجلة الكليه اذار ١٩١٤

صحيحة بالاضافة الى انفسهم — اي الى ما الفو وما لم يالفوا — لا بالاضافة الى ما يمكن ان يفهم منها بعد اعمال الفكر . ولا ريب عندنا برجاحة رأي ابن رشيقي : « والفلسفة وجر الاخبار باب آخر غير الشعر ، فان وقع فيه منها شيء فبقدر . ولا يجب ان يبعلا نصب العين ويكونا متكثراً واستراحة ؛ وانا الشعر ما اطرب ، وهز النفوس وهز الطباع . . . » ثم نقل رأي الجاحظ في مكان آخر فقال : « اجود الشعر ما رأيت متلاحم الاجزاء سهل المخارج . . . فهو يجري على اللسان كما يجري الدهان . واذا كان الكلام على هذا الاسلوب الذي ذكر الجاحظ لذ سماعه وخف محتمله وقرب فهمه وعذب النطق به ^(١) . . . »

نحن نعلم ان شعر ابي تمام ليس من هذا النوع الذي يقرب فهمه ويعذب النطق به . ولكنه من ذلك النوع الذي تطرب له العقول المثقفة والافكار النيرة واهل الاطلاع الواسع ؛ وكل ذنبه انه بحث عن اوجه للشبه جديدة واستعارات بعيدة عن المألوف اوحى اليه بها اطلاعه الواسع وفكره القوي وروحه الوثاب ، فاستبعدها الناس واستغربوها وحماوا عليه من اجلها .

كثرة اختراعه — قال ابن رشيقي ^(٢) : « واكثر المولدين معاني وتوليداً فيا ذكره العلماء ابو تمام » ، ولكنه شخصياً يميل الى اعطاء هذا المركز لابن الرومي ^(٣) مع انه قد شر كها فيه قبل بضع عشرة صفحة ^(٤) حيث قال : « واكثر المولدين اختراعاً وتوليداً ، فيا يقول الحذاق ، ابو تمام وابن الرومي . . »

(٢) الممددة ص ١ : ١٨٩

(١) الممددة ١ : ٨٣ ثم ١٧١ - ١٧٢

(٤) ص ١٧٧

(٣) ص ١ : ١٩٠

والاختراع عند ابن رشيح خلق المعاني التي لم يُسبق إليها ، والأتيان بما لم يكن منها قط . واما ابن الاثير فاشد تحفظاً في احكامه ؛ جاء في كتابه ^(١) « قد قيل ان ابا تمام اكثر الشعراء المتأخرين اختراعاً للمعاني ، وقد عدت معانيه المبتدعة ^(٢) فوجدت ما يزيد عن عشرين معنى . واهل هذه الصناعة يكبرون ذلك ؛ وما هذا من ابي تمام بكبير ! ^(٣) » .

والى هذا ايضاً ذهب ابو الفرج الاصفهاني ^(٤) فقال عنه « شاعر مطبوع ، لطيف الفطنة ، دقيق المعاني ، غواص على ما يستصعب منها ويعسر متناوله على غيره » . الا ان النقاد لا يتفقون على انه مطبوع ؛ واعتقد انا ان الاصفهاني مسرف في ذلك لما سزاه بعد آن .

قوي الفكر ، غزير المعاني — نجد معاني ابي تمام احياناً تتعقد ؛ ولكن لانزاهاتنحط الى درك ما .

بدأ الآمدي حجاجه ^(٥) فقال : « ووجدت — اطال الله عمره — اكثر من شاهدته ورأيت من رواة الاشعار المتأخرين يزعمون ان شعر ابي تمام . . . لا يتعلق بجيده جيد امثاله ؛ ورديته مطروح مرذول » — وعلى هذا سار الاصفهاني ^(٦) — « والسليم من شعره النادر شيء لا يتعلق به احد ، وله اشياء متوسطة ، ورديته رذلة جداً » . وكيلا ترسخ في ذهن القارئ قوة

(١) المثل السائر ١ : ١٩٣ (٢) لاشك في انه يقصد المخترعة . انظر

المقدمة ١ : ١٧٧ (٣) راجع النماذج في الفصل الثالث : الحكمه والزهد .

(٤) الاغاني ١٥ : ٩٦ (٥) الموزنه ص ١ (٦) الاغاني ١٥ : ٩٦

القسم الثاني من هذا الحكم يتبع الاصفهاني قوله هذا برأي قيم فينصف
ابا تام من المعتصين عليه في ذلك الحين^(١)، ويدافع عنه دفاعاً مجيداً .

نظر ابو تام الى نفسه فرأى قوة فكره ورأيه فقال^(٢) :

فاسمع مقالة زائر ، لم تشبهه أرأوه عند اشتباه اليد .
— ليت شعري ماذا يريبك مني ، ولقد فُتت فطنة الفيلسوف .
وانت كيفاً قلبت في ديوانه تجد فكراً لا يكل عن المدى بل يزداد
دائماً قوة ونضجاً ، وكأنك من معانيه امام سيل لا ينقطع . ويكفيه فخراً
انه ضرب تلك الفكرة السخيفة القائلة : « ما ترك الاوائل شيئاً للآخر »
ضربة تركتها اكذوبة ، وافهم الكثيرين ان قول عنتره « هل غادر الشعراء
من مئردم ؟ لاتعني ان الاقدمين اتوا على جميع المعاني ؛ وان بيت زهير :

ما ترانا نقول الامعاً او معاداً من قولنا مكروراً

اما منحول او انه حكم شخصي خاص . اما ابو تام فيقول عن قصائد^(٣) :
يقول من تقرر اسماعه : كم ترك الاول للآخر !

وظفر ابن رشيق^(٤) بهذا البيت فقال : « وعلى هذا القياس يُحمل
بيت ابي تام — وكان اماماً في هذه الصناعة غير مدافع — : « يقول من
تقرر اسماعه . . . » فنقض قولهم : ما ترك الاول للآخر شيئاً .
وقال ابو تام في مكان آخر فزاد بياناً وكشفاً !

(١) انظر القسم الرابع من هذا الفصل . (٢) ديوان خ ص ٨٤ ، ٤٠٤

(٤) العمدة ١ : ٥٧

(٣) ديوان خ ١٤٣

فلو كان يفنى الشعر افناء ما قرت حياضك ، منه في العصور الذواهب ،
ولكنه صوب العقول ؛ اذا انجلت سحائب منه أعقت بسحائب^(١) .

ويؤكد لنا ابو تمام ذلك بقوله عن قصائده :

مزهبة عن السَّرَق المورى ؛ مكرمة عن المعنى المعاد^(٢) .

ومعاني ابي تمام على كثرتها جيدة ؛ وحسبك ان يقول عمارة بن عقيل وقد
سمع له ابياتاً من قصيدته : غدت تستجير الدمع خوف نوى غد : « لقد
تقدم في هذا المعنى من سبقه اليه ، حتى لقد حجب الي الاغتراب^(٣) ! » ؛
يقصد بذلك قول شاعرنا :

وطول مقام المرء في الحى مُخلق لدياجتيه ؛ فاغترب تتجدد .
فاني رأيت الشمس زيدت محبة الى الناس ، أن ليست عليهم بسرمد !

مصادر معانيه — اذا تركنا المصدر الشخصي لهذه المعاني ، وما
تعلمه ورواه فاستقى منه ، رأينا كالكثير الشعراء — ان لم نقل كلهم — يأخذ
المعاني من افواه الذين لا يتصدون ان يخرجوا ادباً لانفسهم .

جاء في الاغاني^(٤) : « مر ابو تمام بمنذث يقول لآخر : جئتك امس
فاحتجبت عني ؛ فقال له : السماء اذا احتجبت بالغيمة رُجي خيرها » . . . قال
من روى عنه الاصفهاني^(٥) « فتبينت في وجه ابي تمام انه قد اخذ المعنى ايضاً منه
في شعره ، فما لبثنا اياماً حتى أنشدت قوله :

(١) ديوان خ ص ٢٣ ، س ١٢٤ (٢) ديوان خ ص ٨١

(٣) الاغاني ٩٧ : ١٥ (٤) ١٠٣ : ١٥ (٥)

ليس الحجاب بمقصّر عنك لي أملاً ؛ ان السماء تُرجى حين تحتجب .
وبجانب هذا النوع نوع آخر اختلف الناس في تسميته ؛ فقال بعضهم إنه سرقة ، وقال آخرون انه ابتداء .

يعتقد الآمدي ^(١) أن ابا تمام شُغف بالشعر ومطالعه « وانه ما من شيء كبير من شعر جاهلي ولا اسلامي ولا محدث الا قرأ واطلع عليه » . لذلك تمكن من سرقة معان كثيرة خفي اكثرها لقلة اطلاع الناس على ما اطلع عليه ابو تمام . ويلى هذا القول اثنتان وثلاثون صفحة يرد الآمدي فيها ابياتاً لا يبي تمام الى المصادر التي سرقت منها ، ويأخذ بها اخذاً شديداً ؛ مع ان الآمدي نفسه يقول حينما يعرض لسرقات البحري ^(٢) : « انه غير مُنكر ان يكون (البحري) اخذ منه (ابي تمام) من كثرة ما كان يرد على سمع البحري من شعر ابي تمام فيعتلق معناه قاصداً الاخذ او غير قاصد . . . » و (ان هناك) ما يشترك فيه الناس ، وتجري طباع الشعراء عليه ؛ ثم اضاف الى ذلك قوله ^(٣) : « ان من ادركته من اهل العلم بالشعر لم يكونوا يرون سرقات المعاني من كبير مساوي الشعراء وخاصة المتأخرين ، اذ كان هذا باباً ما تعرّى منه متقدم ولا متأخر ^(٤) . . . »

لا يتسع المقام هنا لذكر عناصر السرقة في الشعر كما فصلها ابن رشيق عن المصادر التي استقى منها ^(٥) ، فالقول متشعب والحكم نسبي ذاتي . غير ان ما لا يغتفر ان يأخذ الشاعر قول شاعر آخر بظله الخصوص ، ثم يسوقه في

(١) الموازنة ص ٢٣ (٢) الموازنة ص ٢٢ (٣) ص ١٢٤

(٤) الاحرار ٥ اب سنة ١٩٣٣ (٥) العمدة ٢ : ٢١٥ - ٢٢٦

الفاظ متشابهة او مختلفة ، اما اذا راقه معنى ورأى ان بعض نواحيه قد خفيت على صاحبه فجلاها فهو كأنه قد اخترعه او ابدعه . واحسن مثال على ذلك ما رواه الاصفهاني^(١) فقال :

« حدثني هارون بن عبد الله المهبلي قال : كنا في حلقه دعبل ، فجرى ذكر ابي تمام ؛ فقال : دعبل كان (ابو تمام) يتتبع معاني فيأخذها . فقال له رجل في مجلسه : واي شيء من ذلك اعزك الله ؟ قال : قولي :

وإن امرؤ اسدى اليّ بشافع اليه ، ويرجو الشكر مني لأحق .
شفيحك فاشكر في الحوائج ، انه يصونك عن مكروها وهو يخلق .

فقال الرجل : فكيف قال ابو تمام ؟ فقال : قال :

فلقيت بين يديك حاو عطائه ، ولقيت بين يدي مر سؤاله^(٢) .
واذا امرؤ اسدى اليك ضيعة من جاهه ، فكانها من ماله !

... فقال : والله لئن كان اخذه منك لقد اجاد فصار اولى به منك ؛

وان كنت اخذته منه فما بلغت مبلغه ... »

وروى ابن رشيق^(٣) ان ابا تمام كان يحثذي ابياتا لاستاذه ديك الجن .

وقد اتفق ايضا أن اختار ابو تمام في حماسته بيتين في الادب لاحد الشعراء^(٤) نراهما في احدي متطوعاته ، ومطلعها :

(٢) ديوان خ ٢٤٠

(٢) ٢ : ٢٠

(١) الاغانى ١٥ : ٩٧-٩٧

(٣) العمدة ٢ : ٦٤

إذا جاريت في خلق دينياً فانت ومن تجاربه سواء^(١)

قيل قالها معرضاً فيها ببعض بني حميد لانه لم يستطع ان يهجوهُ لما لآل
حميد من الحب في قلبه والوفاء من نفسه ؛ ولا ريب في ان هذا نوع من
السرقه صحيح ؛ ولو ظفر الآمدي بهذا البيت لألف في مثالب ابي تمام
كتاباً جديداً ! .

وحمل دعبل على ابي تمام متها اياه بسرقة اجمل مرثيه « كذ فليجل » ،
فزعم ان الشاعر اطلع على الابيات التالية لابي سلمى المُرْزَنِي - من ولد
زهير بن ابي سلمى - :

ابعد ابي العباس يُستعَب الدهرُ ؛ وما بعده للدهر عُتْبِي ولا عذر .
الا ايها الناعي ذفافة ذا الندى تعست وشُلْتُ من اناملك العشر !
ولا مَطَرَتْ ارضا سماءً ، ولا جرت نجوم ، ولا لَدَّت لشاربها الحمر .
كأن بني القعقاع ، بعد وفاته ، نجوم سماء خر من بينها البدر .
توفيت الآمال بعد ذفافة فاصبح في شغل عن السفر السفر .
يُعزَّون عن ثاو تُعزِّي به العلي ؛ ويبكي عليه البأس والمجد والشعر .
وما كان الآمال من قل ماؤه ، وذخراً لمن امسى ، وليس له ذخ .
ثم نظم مرثيته في ابناء حميد الطوسي فقال^(٢) :

كذا فليجل الخطب ، وليفدح الامر ؛
فليس لعين لم يفيض ماؤها عذر .

بعد ذلك اثبت البيت الرابع بعد وضع كلمة : نيهان مكان القعتاع ؛
وأبدل ذفافة في البيت الخامس بحمد ؛ ثم أثبت البيتين : السادس والسابع
من غير تغيير ^(١) .

والذي اراده ان دعيـل بن علي الخزاعي هو الذي لفق هذه الرواية ،
ونحل ابا سلمى هذا الابيات التي زعم ابا تمام سرقها . ولا ريب في ان
ادنى معرفة بالشعر والبلاغة تحيل الالتحام بين الابيات الثلاثة الاولى وبين
الاربعة الاخيرة . فالثلاثة الابيات الاولى اشبه شيء بشعر « قصة بني هلال ،
او قصة الزير سالم » ؛ بينما الاربعة التالية تنطق بشاعرية فياضة ، وعبقرية
لاشك فيها .

أعجب الناس بمعاني ابي تمام كلها : المبتكر منها والموآد ، حتى ان
كاتباً ما اتكل يوماً على غير ما يجيش في صدره لم يتالك من ان يضمن لابي
تمام ابياتاً هي الآتية ، مضافاً اليها البيت الأخير :

اذا مارق بالغدر حاول غدره ، فذاك حري ان تميم حلائله .
فان باشر الاصحار فالبيض والقنا قراء ، واحواض المنايا مناهله .
وان تبني حيطاناً عليه فانما اولئك عتالاته لا معاقله .
ولا فاعلمه بانك ساخط ودعه ، فان الحرف لاشك قاتله ^(٢) .

(١) راجع الفصل الثالث : الرثاء

(٢) غ ١٥ : ٩٨ ، ٩٧ ؛ خ ٢٣١ - ٢٣٢ - اذا اراد خائن ان يغدر فيجب ان
تصبح نساوه ارامل ؛ ولن يستطيع ان ينجو من قبضتك ، فلو هرب الى الصحراء
لمات جوعاً وعطشاً (هكذا فعل بابك في اول الامر ثم استسلم لما نفذ قوته ؛ وهذه
الابيات فيه) . المعاللات : (القبود ؛ المعائل : الحصون .

وقد اعجب ايضاً بهذه المعاني الشعراء حتى الاعداء منهم كدعبل^(١) .
واعجب من هذا كله واغرب ان ابا تمام ظل قوي الفكر طول حياته ؛ فانه
« اختُرِمَ (مات) وما استمتع بخاطره ، ولا نزع ركي (بئر) فكره حتى
انقطع رشأ عمره^(٢) (جبل عمره) » .

٣ - الصناعة في شعر ابي تمام

طربت الاذن السامية عموماً والعربية خصوصاً الى تألف الالفاظ مما
لا تكاد تجده في اللغات الاجنبية اللهم كلمات معدودة ينهون عليها في كتب
الصرف حتى لا تشبه معانيها في الاستعمال . ولم يعلم ان كاتباً غريباً وشى بها
ما يكتبه . غير ان بعضهم يسوق منها احاجي ليست من الفن الادبي في
شيء ، بل هي سوقية في الاعم الغلب .
لا اريد هنا ان اجلو هذا البحث لانني احب تركه الى مناسبة اجدر به
من هذه .

جرى لسان العربي منذ عهد بداوته بالفاظ متشابهة لفظاً متقاربة معنى ، او
متقاربة في المعنى دون اللفظ ، ينتظر السامع ان تأتي معاً ؛ او متضادة في
المعنى . كانت هذه تجري على لسان العربي بين الفينة والفينة لا يقصد الى
تأليفها او رصفها ؛ وجاء القرآن الكريم فكان فيه منها شيء غير يسير ،
ولكنه غير مقصود .

ثم أخذ الناس يفتنون لعذوبتها ، وطلاوتها لجدتها ؛ فقالوا : ان اول من

قصدها وافسد بها الشعر صريع الغواني مسلم بن الوليد . ولكن لتخط
هذه المقدمة القصيرة الى صناعة ابي تمام .

في الاغاني^(١) عن ابي تمام « وله مذهب في المطابق هو كالسابق فيه جميع
الشعراء ، وان كانوا قد فتحوه قبله ، وقالوا القليل منه فان له فضل الاكثار
فيه ، والساوئ في جميع طرقه . » وانكر عليه الامدي هذا الفضل البتة
لان الناس سبقوه اليه ؛ وقد عد « استكثاره منه وافراده فيه من اعظم
ذنوبه ، واكبر عيوبه^(٢) » . اما ابن رشيق فيظهر لنا بجلاء انه اميل الى
الاصفهاني في تأكيد فضل ابي تمام^(٣) ، فقال عن ابي تمام : « انه كان يجيد
باب التصنيع^(٤) » .

الجناس والطباق — لا ريب في ان ابا تمام كان يتكلف التجنيس
والمطابقة ويسوق فيها المعاني البعيدة ايضاً فتغلق على افهام العامة او تكاد ،
وتنفر احياناً في الذوق كقوله :

— قرأت بقرآن عين الدين وانشرت بالاشترين عيون الشرك فأصطالما .
— ذهبت بمذهبه السماحة فالتوت فيه الظنون ، أمذهب أم مذهب ؟
— فاسلم سلمت من الآفات ماسلمت سلام سلمى ، ومهما أوردك السلم .
واهل الصناعة لا يقرون التجنيس بين اكثر من لفظتين ، ولكن ابا
تمام تعدى ما اتفقوا عليه مرارا . وكذلك قوله :

— خان الصفاء اخ خان الزمان اخا عنه فلم يتخون جسمه الكمد .

— يا يوم شرد يوم لهوى لهوى بصبايتي ، واذل عز تجلدي .
ولكن لا ي تمام تجنيساً وقف امامه الامدي مبهوتاً فقال :
« لو اقتصر الطائي على ما اتفق له في هذا الفن من حاو الالفاظ وصحيح
المعنى كقوله :

— نثرت فريد مدامع لم تنظم ؛ والدمع يحمل بعض شجو المعرّم .
— جفوف الردى ! أسرعت في الغصن الرطب ؛
وخطب الردى ، والموت ! ابرحت من خطب .
— قد ينعم الله بالباوى ، وان عظمت ؛ ويبتلي اليه بعض القوم بالنعم ^(١) .
لسقط اكثر ما عيب عليه . اشم ان هذه الابيات وامثالها هي التي سماها
كتاب امراء الشعر ^(٢) « التأنق البديعي » واليك الآن بضعة ابيات فيها
رونق وماء ، « وهي في ابن الزيات » :

تُطل الطاول الدمع في كل موقف ، وتمثل بالصبر الديار الموائل .
دوارس ، لم يحف الربيع ربوعها ؛ ولا مر في اغفالها وهو غافل .
فقد سحبت فيها السحائب ذيلها ؛ وقد أنحلت بالنور منها الحائل .
مها الوحش ، الا ان هاتا اوانس ؛ قنا الخط ، الا ان تلك ذوابل .
هوى كان خلصا ؛ ان من احسن الهوى
هوى جلت في افياؤه وهو خامل ! ^(٣)

(١) الموازنة ١١٧ ، وانتمت البيتين الاولين من الديوان ، وقد ذكر الامدي

صدرهما فقط

(٣) ديوان خ ٢٥٥ - ٢٥٦

(٢) المقدسي ص ١٨١ وما بعده

شعره واسلوبه — ليس ابو تمام من الشعراء المطبوعين الذين يجري الشعر على الستهم عفواً وسليقة ، بلا تكلف ولا محاولة صنعة ؛ وان كنا نحالف الاصفهاني في ذلك بعض الخلاف^(١) ؛ ولعل هنالك قولاً اقدح من قولنا هذا اتى به الانباري في كتابه^(٢) فقال : « وكان (ابو تمام) يحب الشعر ، فلم يزل يعانيه حتى قال الشعر واجاده . . . » اما الامدي^(٣) فابدى رأياً منصفاً اذ قال : « وان كنت تميل الى الصنعة والمعاني التي تستخرج بالغوص والفكرة ؛ ولا تلوي على غير ذلك فايو تمام عندك اشعر (من البحري) » . وكذلك اتفق اكثر النقاد — في نقل بعضهم عن بعض — على ان شعر الطائي ابي تمام متفاوت الجودة : منه الجيد الذي لا يتعلق به احد ؛ ومنه الوسط ؛ ومنه الرديء الساقط . وربما كان مصدر هذا الحكم النجيل فكرة تائبة رواها الاصفهاني عن البحري في مكانين مختلفين من اغانيه^(٤) . ولقد كان آخر ما نال شاعرنا من ظلم الرواة قولهم : أن « شعره لا يشبه اشعار الاوائل ، ولا (هو) على طريقتهم لما فيه من الاستعارات البعيدة ، والمعاني المولدة^(٥) » ألا ان موضع الخطأ في هذا الرأي انصراف نظر صاحبه عن فضيلة شاعرنا في محاكاة الاوائل في مدائحه ، وفي مطالع هذه المدائح خاصة ؛ ثم نسيانه ان ابا تمام يجب ان يخالف الجاهلين في ميزاتهم لانه شاعر موالد .

(١) الاغاني ١٥ : ٩٦ — « ابو تمام . . . شاعر مطبوع ، لطيف الفطنة . . . »

(٣) الموازنة ٣

(٢) نزهة الالباء ٢١٤

(٥) الموازنة ٢

(٤) ١٥ : ٩٦ : ١٨ : ١٦٨

ومع كل هذه العيوب فقد عُدَّ أبو تام اشعر اهل زمانه ؛ وجعله الوزير الشاعر محمد بن عبد الملك الزيات اشعر الناس طراً . وكذلك فضله صديقه الشاعر علي بن الجهم على سائر الشعراء ؛ وفضله البحثري على نفسه ^(١) .

مذهب ابي تمام في الشعر — يقول الدكتور بروكلمن ^(٢) : « ان ابا تمام يمثل شعر شعراء المقاطعات تمثيلاً صحيحاً ، وهو المثل المحتذى في ذلك » . وعلى هذا الاساس جعل شعراء العصر العباسي قسمين : شعراء بغداد خاصة ؛ وشعراء المقاطعات كالشام وخراسان . وقد اتبعه في ذلك جرجي زيدان في كتابه « تاريخ آداب اللغة العربية » ، واحمد حسن الزيات في « تاريخ الادب العربي » . واظن ان مصدر هذا الحكم جملة وردت في الاغاني ^(٣) عند الكلام على ديك الجن الحمصي من انه « يذهب مذهب ابي تمام والشاميين » فكأنه جعل للشاميين خاصة مذهباً مخالفاً لمذهب اهل بغداد فيه ؛ ثم جعل ابا تمام المتبع ، مع ان ديك الجن اقدم من ابي تمام ، وعنه اخذ ابو تمام بعض شعره ^(٤) .

اما مذهب الشاميين هذا « فالتصنيع في الشعر » والابلاغ في التجنيس والطباق ، مع العلم اليقين بان « البديع » ادخله الشاعر البغدادي مسلم بن الوليد على الشعر ، وافسده به على ما قالوا .

(١) الاغاني ٩٧، ٩٦، ١٥

(٢) Geschichte der arabischen Litteratur, Saite 86

(٣) راجع ص ٢٢، ١٣، ١٢ من هذه الدراسة .

(٤) ١٣٦ : ١٥

نظم — كان في ابي تمام ابطاء^(١) وكان يُكره نفسه على قول الشعر
 اكراها ؛ فلا غرو ان ظهر ذلك على شعره^(٢) . يفعل ذلك ليقترس المعنى
 البعيد ، او الاستعارة التي يتخيلها ، او التجنيس الذي يطلبه . وربما نصب
 القافية التي تروقه وجهد في سوق البيت اليها ، مع ان ذلك مخالف لمذهب
 الشعراء المطبوعين . ان البيت يجب ان يأتي بقافيته ؛ على ان الشعراء الذين
 يجمعون القوافي اولاً ثم يبنون عليها الابيات ليسوا قلائل .
 وابو تمام من الذين يُعذّون بتهديب شعرهم ؛ فن شواهد ديوانه
 على ذلك :

- اليك ارحنا عازب الشعر ، بعدما تمهل في روض المعاني العجائب^(٣) .
 - نشرٌ يسير به شعر يهذه فكر يحول مجال الروح في الجسد^(٤) .
 - اولى المديح بان يكون مهنبا ما كان منه في أغرّ مهنب^(٥) .
- وهو يريد بذلك ان يُبلغ شعره الغاية .

- ساجد حتى أبلغ الشعر شأوه ، وان كان لي طوعا وليس بجاهد^(٦) .
- سيرت فيك مدائحاً فتركتها غررا تروح بها الرواة وتعتدي^(٧) .

نعلم ان ابا تمام نصح للبحثري في اتباع خطة في النظم تخرج شعره
 مسبوكا ، ولا ندرى اذا كان قد اتبعها هو فكانت له مذهباً ؛ او انها
 موعظة محضة . وعلى كل فان فيها أن ينهض الشاعر في السحر بعد ان

(٣) خ ٤٣

(٤) لعمدة ١٣٩ : ١

(١) الاغاني ١٢ : ٦٧

(٦) خ ١١٩ (٧) ١٣٧

(٥) خ ١٤

(٢) خ ٤٩٢

يكون قد اخذ لنفسه قسطاً من الراحة ؛ ويكون خلياً من هم او غم .
ثم ليجعل النسيب رقيق اللفظ رشيق المعنى . وليكن مدحه مُظهِراً مناقب
الممدوح مشرفاً مقامه ؛ وليجتنب في كل ذلك المعاني المجهولة والالفاظ الرزية^(١) ؛
ثم ليقصد الى ما استحسنته الماضون وليترك ما اجتنبوه . بعدئذ خصه بهذه
النصيحة الثمينة : « واجعل شهوتك لقول الشعر الذريعة الى نظمته^(٢) » .

هذه الوصية تصدق على ما نرى في قصائد شاعرنا ولكنها تخالف الرواية
التي يتمسك بها ادياء كثيرون^(٣) من انه روي عن بعض الشعراء ان ابا تمام
انشده قصيدة احسن في جميعها الا في بيت واحد . فقال له : « يا ابا تمام ،
لو القيت هذا البيت ما كان في قصيدتك عيب » ؛ فقال له : « انا والله اعلم
منه مثل ما تعلم ؛ ولكن مثل شعر الرجل عنده مثل اولاده : فيهم الجميل
والقبيح ، والرشيد والساقط ؛ وكلهم حاو في نفسه . فهو وان احب الفاضل
لم يبغض الناقص ، وان هوي بقاء المتقدم لم يهو موت المتأخر » .

النصيرين والنوابع — لم يكن بنا حاجة الى ذكر التصريح هنا
لولا انه سيقودنا الى البحث في التوشيح . لقد جرى الشعراء على تصريح
قصائدهم : التزامهم القافية في العروض والضرب من المطالع كقولهم :
— قفا نبك من ذكرى حبيب ومزحل
بسقط اللوى بين الدخول فجوه (ل) .

(٢) ملخصة، راجع العمدة ١ : ١٣٩

(١) راجع الفصل الثالث - المديح

(٣) الاغانى ١٥ : ٩٦

— الـاهي بصحنك واصبه (ينا) ولا تبقي خمور الاندر (ينا) .
 — دـع عنك لومي، فان اللوم اغر (ا) وداوني بالتي كانت هي الد (ا) .
 وعلى هذا سار ابو تمام في جميع قصائده المهمة الا قصيدة واحدة جعل مطلعها :
 سلام الله عدة رمل (خبت) على ابن الهيثم الملك (الباب) (١)
 ومع ان « المصراع ادخل في الشعر واغوى من غيره » (٢) فقد تساهاوا
 في المقطعات احياناً لاعتقادهم ان القصائد فقط يجب ان تصرع . وعلى هذا
 ايضاً سار ابو تمام ، ولكنه كان يصرع احياناً مطلع البيتين والثلاثة (٣) .

التوشيح — استحدث المتأخرون من شعراء الاندلس فنا « سموه
 بالموشح ينظمونه اسماطاً واسماطاً واغصاناً واغصاناً ، يكثر من اعاريضها
 المختلفة . . . ويلتزمون قوافي عند تلك الاغصان » (٤) . . .

وقد ورد لابي تمام ابيات نستطيع ان نقول انها رائد التوشيح ؛ قسم
 فيها بعض الابيات الى اقسام متساوية او شبه متساوية ، والتم القافية في آخر
 كل جزء او جعل في البيت قافيتين فقط . وهذه ابيات مأخوذة من الديوان (٥) .
 — يقول فيسمع ، ويمضي فيسرع ، ويضرب في ذات الاله فيوجع .
 — جبال طواليع ، جبال فوارع ، غيوث هواميع ، سيول دوافع .

(١) ديوان الاسود ١ : ١٢٦ ، خ ٥٥

(٢) العمدة ١ : ٩٩ ، راجع ايضاً اختلاف العلماء على ١٠ هي القافية الى ص ١٠١

ثم ص ١١٢

(٣) راجع الديوان خ ٤١٦ ، ٤١٩ ، ٤٣١ ، ٤٣٢ ، ٤٤٠ (الخ الخ)

(٤) مقدمة ابن خلدون (بيروت ١٩٠٣) ٥٨٣ (٥) طبع الحياط

انا الحسام ، انا الموت الزؤام ، انا الحرب الضرام ، انا الضرغام العتد .
 ايام سيفك مشهور ، وبجرك مسجور ، وقرنك مقصور ، له الطول .
 ألا سليل ندى ، الاسليل بلى ؟ لو كان حيا لاضحى للندى سبل .
 يعطي فيجزل ، او يدعى فينزل ، أو يُؤتى للحمل اعباء فيحتمل .
 ومن فاحم جعد ، ومن قمر سعد ، ومن كفل نهد ، ومن نائل ثمث^(١) .
 والصق شي . بهذا الموضوع وزن جديد ليس من الابحر الستة عشرة
 في ابیات هي^(٢) :

ثقیل ردف	دقیق خصر	شقیق شمس	نتیج بدر
بدیع حسن	رشیق قد	ملیح خد	نقی ثعر
قضیب بان	علیه بدر	مثال حسن	عروس خدر
یاخصر	قد كنت	ذا اصطبار	فی الحب حتی هتکت ستری
ثنت دموعی	علی عزائی	اذ غاب عني	جمیل صبری

واحسبني لم اجد له غير بيت واحد فيه كلمة عامية^(٣) .

الا بكرت معذورة حين تعذل تعرفني (ملعش) ما لست اجهل .
 وتستطيع ان ترى شيئاً من اللحن الذي اخذه عليه الامدي في الموازنة^(٤) .
 ولعله اعجاباً بطائيته استعمل « ذو » الطائية بمعنى الذي مرتين : مرة باتفاق
 الرواة في بيت واحد هو :

(١) ص ١٩١ ، ٢٧٩ ، ٢٩٣ ، ٣٨٣ ، ٣٨٤ ، ٣٨٤ ، ١٢٧

(٢) خ ٤٤٣ (٣) خ ٢٤٥ ، (من العيش) (٤) ص ١٢ وما بعدها

إذا انت وجهت الركاب لقصده تبينت طعم الماء «ذو» انت شاربه^(١) !
ومرة بروايتين في بيت هو :
انا «ذو» عرفت فان عرتك جهالة فانا المقيم مقامة العُدال^(٢)
وقد رواها الاسود «مَن» .
ثم استعمل أنسي مكان أنسي^(٣) .

٤ - المعتصبون لابي تمام والمعتصبون عليه

لم يعرف الادب العربي شاعراً اثار جدالا صحيحاً في حياته كابي تمام .
جدالا دفع اصحابه الى ديوان الشاعر ينشرون حسناته او سيئاته، ويجادلونك
فيها جدالا موضوعياً دقيقاً مفصلاً لاريب في انه صادر عن اقتناع .
عرفنا رواة الادب يفضاون امرأ القيس على سائر شعراء الجاهلية، او
يرفعون زهيراً فوق النابغة ، او يحكمون لابي نواس على مسلم بن الوليد او
لمسلم على ابي نواس في جمل عارضة واحكام عامة قد تستهويك فتصدقها او
لا ترضيك فتمر بها غير آبه ولا حافل ؛ وكذلك كان شأن الناس في الانتصار
لجريب والفرزدق والاختل . اما الصراع حول مقام ابي تمام فلا يمكنك ان
تشهده مكتوف اليدين ؛ ولا تستطيع ان تقول ان الناس يتجادلون في لا شيء .
قد يسبق الى ذهنك ان الناس انقسم رأيهم في المتنبي ، أو انه كان
للمتنبي خصوم ، وانه شغل الناس ؛ لكنك اذا درست الاحوال التي نشأت

(١) ديوان ص ٦٥ (٢) ديوان خ ٢٦٦ ذو الطائفة معناها « الذي »
وهي من بقايا الهمزة الحميرية - راجع المختصر في علم اللغة العربية الجنوبية القديمة
لاغناطيوس غويدي ، ص ٦ (٣) ص ٣٨٢

فيها خصومة الناس للمتنبي وجدتها تختلف عن تلك التي اثارت الجدل في شعر ابي تمام . ولا يغربن عن بالك انهم يناهضون ابا تمام بشاعر معين هو البحتري ؛ وانهم يجعلون الشاعرين مدار البحث ، ومثار الجدل .

المقام له على ابي تمام — اذا احببت ان تهتدي الى السر في شدة الحملة على ابي تمام بين الشعراء من معاصريه خاصة فخذ رواية ابي الفرج الاصفهاني ^(١) « ما كان احد من الشعراء يقدر ان يأخذ درهماً بالشعر في حياة ابي تمام ، فلما مات اقتسم الناس ما كان يأخذه . . . » ولم يكن هؤلاء الشعراء نفراً لا عدد لهم او لانبوغ فيهم ؛ فقد ذكر ابن رشيق ^(٢) « وليس في المولدين اشهر اسماً من الحسن ابي نواس ؛ ثم حبيب والبحتري ، ويقال انها اخلا في زمانها خمبائة شاعر كلهم مجيد . . . » واما البحتري ، وهو اشهر الموالدين بعد ابي تمام فقد اعترف بتقديم صاحبه فقال : « ان ابا تمام المرئيس والاستاذ . والله ما اكلت الخبز الا به » — « وكان اصل نباهة البحتري ان صار الى ابي تمام في حمص فعرض عليه شعره فاستحسنه ابو تمام ، وكتب الى اهل معرة النعمان وشفع له اليهم . . . » ^(٣) — ثم لم تُعرف للبحتري نباهة وشهرة حتى مات ابو تمام . اما الآمدي فينكر ان يكون البحتري اتصل بابي تمام اتصالاً من يستفيد او يتوصل الى وجاهة ونباهة ^(٤) .

(٢) العمدة ١ : ٦٣-٦٤

(١) الاغاني ١٥ : ٩٨

(٤) الموازنة ٣-٤

(٣) الاغاني ١٨ : ١٦٨، ١٦٩

ومن اشهر الذين ناصبوا ابا تام العداء في حياته دِعبِلُ بن علي الخُزاعي^(١) نسبة الى سرقة معاني الشعراء ، والى انه سرق منه ايضاً^(٢) ؛ وكان شديد التعصب عليه لا مرء في ذلك .

ومن اخبار الاغاني ان دعبلاً أنشد يوماً شعراً وسئل رأيَه فيه فقال : « هو والله احسن من عافية بعد يأس » . فلما قيل له : « انه لابي تام » ، قال : « لعله سرقه ! » .

مرابحاته الشعراء — وقد هجا ابا تام شعراء كثيرين ، فهجا ابو تام بعضهم ولم يلتفت الى بعض . فن هؤلاء جميعاً دعبِل ومَخْلَد بن بكار الموصلي ؛ وهجا ابا تام ايضاً خالد الكاتب ورماء بافطع ما يرمى به شاب ، وعبد الصمد بن المعذل الشاعر البصري ؛ وعبدالله الكاتب ، ومحمد بن يزيد ، ويوسف السراج الشاعر المصري ، وعُتْبَه ابن ابي عاصم ، ومحمد بن وهب الحميري الشاعر ، ومحمد بن الحسن الشاعر^(٣) .

دفاع ابي الفرج — ويجدر بك ألا تمر بقول ابي الفرج وقد جمع فيه كل ما يجب ان يُعلم . قال : « وفي عصرنا هذا من يتعصب له فيفرط حتى يفضلهُ على كل سالف وخالف ؛ واقوام يتعمدون الرديء من شعره فينشرونه

(٢) انظر ص ٤٨ ، ٥١

(١) ت سنة ٢٤٦ هـ

(٣) الاغاني ٢١ : ٣٤ ، وفيات الاعيان ١ : ١٥٠ ، العمدة ١ : ٧٠ ، ديوان خ

٤٨٥ - ٤٨٢ ، ٤٨٩ ، ٤٩١ ، ٤٩٣ ، ٤٩٤ الخ الخ

ويطوون محاسنه ، ويستعملون القحّة والمكابرة في ذلك ليقول الجاهل بهم
انهم لم يبلغوا علم هذا وتمييزه الا بأدب فاضل وعلم ثاقب . وهذا مما يتكسب
به كثير من اهل هذا الدهر ويحباونه ، وما جرى مجراه من ثلب الناس
وطلب معائبهم ، سبياً للترفع وطلباً للرئاسة . وليست اساءة من اساء في
القليل واحسن في الكثير مسقطه احسانه . ولو كثرت اساءته ايضاً ثم احسن
لم يُقل له عند الاحسان اسأت ، ولا عند الصواب اخطأت ! والتوسط في كل
شيء اجمل ، والحق احق ان يتبع . . .

» . . . وقد فضل ابا تمام من الرؤساء والكبراء والشعراء من لا يشق
الطاعنون عليه غباره ولا يدركون ، — وان جدوا — آثاره ؛ وما رأى الناس بعده
الى حيث انتهوا له في جده نظيراً ولا شكلاً^(١) . . . وكان في ابن مهرويه
تحامل على ابي تمام لا يضر ابا تمام هذا منه ، وما اقل ما يقدر مثل هذا في
مثل ابي تمام^(٢) .

انصار ابي تمام وغصونه المناغروه — بعدئذ مضى الكتاب
والادباء يؤلفون في فضائل ابي تمام ومثالبه ؛ ولكن من سوء حظنا وحظ
ابي تمام وحظ الادب انه لم يبق سوى موازنة الآمدي وهو اشد الناس
تعصباً عليه واكثرهم محابة للبحثري^(٣) . ولو بقي لنا كتاب الصولي في
اخبار ابي تمام ، وكتاب السميسطائي في اخباره والمختار من شعره ، وكتاب

(١) الاغانى ١٥ : ٩٦ (٢) ١٢ : ٦٧ ، راجع ايضاً طبعة بولاق ١٢ : ٧٠

(٣) الاحرار ٢٢ تموز ، ٥ آب سنة ١٩٣٣

المرزباني، وكتاب الخالدين (محمد وسعيد) في اخبار ابي تمام ومحاسن شعره^(١)
 لكانت آراء كثير من الكتاب قد اختلفت. ومن الذين الفوا في مثالب ابي
 تمام ابو القاسم الحسن بن بشر بن يحيى الآمدى^(٢) وابو ضياء النصيبي^(٣)
 وابو العباس احمد بن عبيد الله القطربلي^(٤) ورجل اسمه عبد الكريم^(٥).

ولا يزال قوم منذ ذلك الحين يدخلون المشادة بين اصحاب ابي تمام
 واصحاب البحتري. واعتقد ان كثرة الاعتماد على موازنة الآمدى في استخراج
 حسنات الشعراء وسيئاتها لا يرجع بكبير جدوى، لأن الرجل مغال كما
 رأيت ومحاب كما علمت، والعلم والفن يحتاجان الى انصاف ونظر. ومن
 تتبع العيب لم يعجزه ايجاده، ومن طلب العذر لم يفته.

ولقد فطن بعض المؤلفين لتحامل الآمدى على ابي تمام ومحاباته للبحتري
 فقال ابن النديم « ان في الآمدى تحاملا على ابي تمام »، ونسبه الشريف
 المرتضى الى الغلو في انتقاد ابي تمام^(٦). ويخبرنا ياقوت^(٧) ذلك بتفصيل واف
 فيقول: ولا يبي القاسم (الآمدى) تصانيف كثيرة جيدة مرغوب فيها،
 منها كتاب الموازنة بين ابي تمام والبحتري ٠٠٠ وهو كتاب حسن وان كان
 قد عيب عليه في مواضع منه، ونسب الى الميل مع البحتري فيما اورده
 والتعصب على ابي تمام فيما ذكره ٠٠٠ فانه جد واجتهد في طمس محاسن

(١) الفهرست ص ١٩٠، ١٩٢، ٢١٥، ٢٢٠، ٢٤٠

(٢) الاستاذة ١٢٨٧ هـ؛ وبيروت (٣) الفهرست ص ٢١٣

(٤) الفهرست ٢١١؛ الموازنة ص ٥٦ (٥) المدة ٢ : ١٩٢

(٦) الشهاب في الشيب والشباب (قسطنطينية ١٣٠٢) ص ٤ - ما بعدها

(٧) معجم الادباء ٣٠ : ٥٩

ابي تمام وتزيين مزدول البحتري . . . » وياقوت لا ينكر فضائل البحتري بل يقول : « لو انصف (الآمدي) وقال في كل واحد بقدر فضائله لكان في محاسن البحتري كفاية عن التعصب بالوضع من ابي تمام »^(١) .

الموضوع المزمن ! — اما نحن فلا نزال حتى اليوم متمسكين بقول زويه حيناً عن المتنبي هو : « انا وابو تمام حكيان ، والشاعر البحتري . » وآونة نجريه على لسان ابي العلاء المعري فتزعمه يقول : « ابو تمام والمتنبي حكيان ، والشاعر البحتري » . ولا أحسب ان تلميذاً درس الادب ولم يطلب اليه مناقشة هذا القول المأثور والموازنة بين الشاعرين ، حتى اصبحت مناقشة هذا القول « موضوعاً مزمناً » .

ووجه الغرابة ان مثل هذه المناقشة المبنية على تحامل الآمدي ببناء غير علمي ليست اولى بالنظر من المقارنة بين ابي نواس ومروان بن ابي حفصة ، او بين البحتري نفسه وبين ابن الرومي على قلة دوران هذا بخلدنا . والمقارنة — حفظك الله — لا تكون بين المتنافرين حيث الفرق بين ، ولا المتقاربين حتى التماثل ؛ وانما تكون بين اثنين جريا في عنان واحد وانطلقا في سبيل واحدة واتحدا في الهدف ؛ ثم اختلفا في الاجادة ، وتباينا في الاسلوب ، وتفاضلا في المعاني .

(١) وقد مر بك كثير عن تحامل الآمدي ، راجع ص ٣٧ وما بعدها .

فاذا اردت ان تقارن بين الطائيين فخذ من ديوانيهما قصيدتين في فن واحد ، ومعنى واحد ، ومن بحر واحد وعلى روي واحد ثم قارن بينهما . لكنك اذا اردت المناقشة على اساس «عذوبة الفاظ البحري وغريب معاني ابي تمام» فلما تفعل شيئاً يستطيع ان يقوم به صغار التلاميذ لوضوح قصده ومحجته ، بله أنه شيء بدهي ليس خليقاً ان يحشر له التلاميذ من اقصى التخوم فيجبسوا انفسهم ساعتين كاملتين ، ثم يخرجون بقولهم : ان البحري «عذب الالفاظ وابا تمام غريب المعاني» . اليست مقارنتنا بين ابي تمام الحكيم والبحري الشاعر كمقارنتنا بين عبد الله بن المقفع وبشار بن برد ، او بين زهير بن ابي سلمى والسندباد البحري ؟

لنأخذ اذن قصائد معينة للشاعرين او فنونا بعينها ثم نطلب من التلاميذ ان يكتبوا عنها فيظهر لنا حينئذ مدى تفكير تلاميذنا ومدى احاطتهم بالخصائص الصحيحة وقوة فهمهم للاغلال الدقيقة التي توحى جمال الشعر وتميز المعنى من اخيه .

ابو تمام مؤلف — لا إخالني اعرف شاعراً مؤلفاً قبل العصر العباسي ؛ اما في العصر العباسي فقد كان من الشعراء المُتَمَلِّكين كَتَّابٌ (في الدواوين) . من هؤلاء الشعراء : عبد الله بن المقفع (الكاتب المنشيء) ، محمد بن عبد الزيات ، سليمان بن وهب ، عمرو بن مسعدة ، احمد بن المدبر ، احمد بن يحيى البلاذري المؤرخ ، والخالديان محمد وسعيد ؛ وغيرهم ممن هم اقل شهرة ^(١) ؛

ومن هؤلاء ايضاً بشير بن المعتمر ^(١) لانه « نقل من الكتب من معانٍ شتى الى الشعر » .

اما بعد ابي تمام فهناك البحتري ، وابن المعتز ، والسري الرفاء ، وابو العلاء المعري ؛ فهم مؤلفون بالمعنى الذي نفهمه اليوم .

اشتهر ابو تمام بجاميع الشعر فله كتاب الحماسة ؛ كتاب الاختيار من شعر الشعراء ؛ كتاب الاختيار من اشعار القبائل ؛ كتاب الفحول (في الجاهلية والاسلام ، وينتهي بابن هرمة) ^(٢) وله ايضاً من الكتب كتاب اختيار المقطعات ، كتاب المختار من شعر المحدثين ؛ وكتاب نقائض جرير والاخلط . ولا يعرف اليوم من هذه الكتب جميعها سوى كتابين : الحماسة ، ونقائض جرير والاخلط .

يعتقد التبزي - شارح ديوان الحماسة ، واحد شراح ديوان ابي تمام - ان ابا تمام اشعر في اختياره كتاب الحماسة منه في شعره . اما ما كان من سبب تأليفه هذا الكتاب فهو ^(٣) ان الشاعر كان متوجها الى خراسان ليمدح عبد الله بن طاهر فزل في اثناء سفره عند صديق له في همدان اسمه ابو الوفاء بن سامة الحمداني فاكرمه ؛ فاصبح ذات يوم وقد وقع ثاج كثير قطع السابلة

(١) الفهرست ٢٣٠ - ٢٣١

(٢) الفهرست ٢٣٥ ؛ دائرة المعارف الاسلامية : ابو تمام

(٣) راجع ص ١٨

فغمّ أبو تمام وفرح أبو سامة وقال : « وطن نفسك على البقاء ؛ ان الثلج لا ينحسر الا ، بعد زمان » ، واحضر له خزانة كتب فطالعهما واشتغل بها وصنف خمسة كتب في الشعر منها كتاب الحماسة ، وصنّف الوحشيات وهي قصائد طوال ^(١) .

حماسة أبي تمام — جعل أبو تمام كتاب الحماسة عشرة ابواب هي :
 ١ . باب الحماسة ، وبه سُمي الكتاب ٠٢ باب المراثي ٠٣ باب الادب
 ٠٤ باب النسيب ٠٥ باب الهجاء ٠٦ باب الاضياف والمديح ٠٧ باب الصفات
 ٠٨ باب السير والنحاس ٠٩ باب الملاح ٠١٠ باب مذمة النساء .
 ويمتاز ديوان الحماسة بانه جمع مقطعات كثيرة لشعراء مقلين مجهولين لا نرى لهم ذكراً في غيره .

مقدرو أبي تمام — وقلد ابا تمام في عمله هذا كثيرون منهم :
 (١) تلميذه البحتري — وقد كان يتشبه به وينحو نحوه ^(٢) — قالف
 « كتاب الحماسة » على مثال حماسة ابي تمام ^(٣) .
 (٢) « الخالديان ، ابو بكر وابو عثمان » ^(٤) ولهما من الكتب كتاب

(١) وفيات الاعيان ١ : ١٥١ ؛ زيدان ، تاريخ آداب اللغة العربية ، ٢ : ٧١ ؛

Cf. Hamasa, Ausgabe Freytags, S. ix

مقدمة ديوان الحماسة (مصر) ص ٣ ؛

(٢) معجم الادباء لياقوت ٧ : ٢٢٧

(٣) الفهرست ٢٣٥ (٤) راجع ص ٦٦ س ؛ الفهرست ٢٤١

حماسة شعر المحدثين . . . »

(٣) الحماسة العسكرية ، لابي هلال العسكري

(٤) الحماسة ، للاعلم الشنتمري (ت ٤٢٦) .

(٥) الحماسة لابي السعادات هبة الله بن علي الشجري العلوي (ت ٥٤٢)

وتعرف بمختارات الشجري .

(٦) الحماسة لابي بن الحسن المعروف بشميم الحلبي (ت ٦٠١) .

(٧) الحماسة لابي الحجاج يوسف بن محمد الاندلسي البياسي (ت ٦٥٣)

(٨) الحماسة البصرية ، لصدر الدين علي بن ابي الفرج البصري (قتل ٦٥٩)



الفصل الثالث

نقد فنون أبي تمام وأبحاثه

ليس ديوان أبي تمام كبير الحجم بالإضافة إلى دواوين أمثاله من الشعراء كإبي نواس ، والبحتري ، وابن الرومي وغيرهم ممن لمعوا في سماء الأدب العربي وحازوا أمارته على الدهر ، واتصاوا برجات العرب والإسلام في السياسة والاجتماع . وأبو تمام ككل الشعراء العرب — إذا استثنينا نفرًا كالعباس بن الأحنف وعمر بن الفارض وأمثالهما — خاض في فنون الشعر جميعها ، ولكنه اكتسب شهرته بفنّين منها : المديح والثناء . ومع أن شعره في الثناء أقل حجمًا من شعره في المديح فإنه لا يقل عنه قيمة ، بل ربما فاقه .

١. المديح — لا يستطيع دارس أن يعتمد في نقد « المديح » على مدائح الشاعر أبدًا ؛ فهي لا تدل غالبًا على المادح ولا على الممدوح دلالة صادقة ، لأن حماسة الشاعر تزيد أو تنقص حسب زيادة أملة أو نقصه في نوال الممدوح . وكثيرًا ما رأينا شاعرًا يمدح شخصًا ثم يعاتبه ثم يهجوّه ؛ ومن هؤلاء أبو تمام .

عرف أبو تمام كيف يصرف مدحه ، فلم ينتفع في أيامه شاعر بدرهم^(٢) ؛

(١) راجع « أبو نواس » الدراسة ص ٢٧

(٢) راجع ص ٦١

واذا علمنا ان المدح ارضاء الممدوح فحسب غفرنا كثيراً من ذنوب ابي تمام ،
واهملنا اكثر ما يأخذه به النقاد .

كان الناس في غمرة من الثقافة الفارسية يولون اوجهم شطرها في اكثر
امور دنياهم فلم يكن نصيب الادب اقل من نصيب غيره ^(١) حتى اصبحت
بغداد على الحقيقة قطعة من بلاد الفرس . ثم كانت نكبة البرامكة ،
وفورة الزندقة ، وصلف الشعوبية ، وفتنه بابك ، ومحجى الاتراك فمال الناس
— في الظاهر على الاقل — عن الفرس ميله واحدة واستيقظت فيهم الروح
العربية وحنوا الى البادية والوانها من جديد ؛ مع ان الشعراء لم يكونوا قد
انصرفوا عنها قط ، خصوصاً في اماديجهم .

يتماز مديح ابي تمام باربعة مظاهر كبرى احتاز بها حقوق الشعراء جميعاً .
(١) الاشادة بالقومية العربية والدين الاسلامي : فهو يستمد منهما

تاريخاً وعظمة وشهامة ينثرها في مدائحه ، وقد استطاع من اجل ذلك ان
يفوز باعجاب بني العباس مع احتفاظه بحب آل البيت . ولا يغربن عن بالك
ان الميل الى بني علي كان خيانة عظمى يومذاك .

من ذلك قوله في مدح المأمون :

لما رأيت الدين يخفق قلبه ؛ والكفر فيه تغطرس وعُرام ^(٢)

(١) راجع «ابو نواس» : الدراسة ١٨ — ١٩ ، ٣٢ ، ٣٨ — ٣٩ ، ٥٢ — ٥٤

والمختارات ٣٠ — ٣٢ الخ

(٢) شدة

اسرجن فكرك ، والبلاد ظلام .
حسن اليقين ، وقاده الاقدام ،
شنعاء ليس لنقضها إبرام ؛
في هبوتيه والكثابة صيام ،
والله فيه ، وانت ، والاسلام !

اوريت زند عزائم تحت الدجى
فنهضت تسحب ذيل جيش ساقه
حتى نقضت الروم منه بوقعة
في معرك ، اما الحمام ففطر
ما كان للاشراك فورة مشهد
ومن ذلك قوله ايضاً :

هيجاء ، الا عز هذا الدين^(١) .

لم يُقَرَّ هذا السيفُ هذا الصبرَ في
ومدح الواثق فقال :

كرم ، يذوب المزن منه ، ولين :
نور عليه ، من النبي ، مبين .
مهدي ، والمعصوم ، والمأمون .
ظل الهدى غاب لهم وعرين .
سُور عليه من القرآن^(٢) حصين .
والهند بعض ثغورها والصين .

يا ابن الخلائف : ان بردك ملؤه
نور من الماضي عليك ؛ كأنه
يسمو بك السفاح ، والمنصور ، وال
فرسان مملكة ، اسود خلافة
قوم غدا الميراث مضروبا لهم
قد اصبح الاسلام في سلطانها ؛

وليس احسن في هذا المقام من الاكتفاء بالاشارة الى قصيدة « فتح
الفتوح » لشهرتها^(٣) .

(١) ماصبر اناس ، والسيوف بايديهم ، مثل هذا الصبر في حرب ما الا انتصر الاسلام

(٢) القرآن (بتسهيل الحزمة) لغة في القرآن .

(٣) راجع ص ٣٣ حاشية ٢

وقريب من هذا قوله في مدح ابي سعيد الثغري بعد وقعة بابل :

تأله أدري أالاسلام يشكرها من وقعة، ام بنو العباس، ام أدد^(١) ؟
يوم به اخذ الاسلام زيتها باسرها، واكتسى فخراً به الأبد ؛
يوم يحيى اذا قام الحساب ولم يذمه بدر ولم يفضح به أحد^(٢) .
لم تبق مشركة الا وقد علمت - ان لم تثب - انه للسيف ماتلد .
فاعذر حسودك فيما قد خُصصت به؛ ان العلى حسن في مثلها الحسد !

(ب) استخدام الحوادث القديمة والحديثة : اذا كان لها علاقة بالممدوح

او باله او بقبيلته او بقومه ، ليرفع بها من شأنه ويشهر مناقبه ويظهر مناسبه
ويبين معالمه وشرف مقامه فتراه لا يغفل عن حادثة كبيرة يذكرها او
صغيرة يظهر اهميتها^(٣) . ولذلك اهمية كبيرة تمكننا من تعيين تاريخ اكثر
قصائده بشيء يشبه التأكيد .

مدح الشاعر ابا دلف العجلي فقال مشيراً الى قومه :

اذا افتخرت يوماً تميم بقوسها، وزادت على ما وطدت من مناقب
فانتم بذى قار امالت سيوفكم عروش الذين استرهنوا قوس حاجب .

(١) القسم منفي تقديره (والله اني لا ادري . . .) ، ادد : قبيلة الممدوح .
- تأله ادري آالاسلام . . . (٢)
(٢) يوم الحساب : يوم القيامة ؛ بدر واحد غزوتان من غزوات النبي صلى
الله عليه وسلم . (٣) راجع ص ٥٧

محاسن من مجد متى تقرنوا بها محاسن اقوام تكن كالمعائب^(١) .

ومدح ابو تمام محمد بن عبد الملك بن صالح الهاشمي فقال فيه :

نرمي باشباحنا الى ملك نأخذ من ماله ومن أدبه .

نجم بني صالح ؛ وهم النجم ال عالم من عجمه ومن عربه .

رهط النبي ، الذي تقطع اس باب البرايا سوى سبيه !

وانظر الآن كيف يحاول ابو تمام ان يحاو نسب خالد بن يزيد الشيباني

في اجمل إهاب ، ويكسوه من المجد اغلى ثياب .

مطر ابوك ، ابو أهلة وائل ؛ ملا البسيطة عدة وعديداً .

اكفأؤه تلد الرجال ؛ وإنما ولد الختوف اسوداً^(٢) واسودا .

ورثوا الابوة والحظوظ ؛ فاصبحوا جمعوا جدوداً في العلي وجدوداً^(٣)

ومشوا امام ابي يزيد وحوله مشيا ، يهد الراسيات ، وثيدا !

واذا رأيت ابا يزيد في ندى ووغى ، ومبدي غارة ومعيدا

ايقتن ان من السماح شجاعة تدمي ؛ وان من الساحة جوداً^(٤)

(١) خ ٤٢ - اذا كان بنو تميم يفتخرون بقوس صاحب وفدهم : حاجب بن

زرارة ، التي قبلها كسرى لتكون رهناً عنده كيلا يرعى بنو تميم الا في المواطن التي

عينها كسرى لهم على الفرات ، ثم وفوا بذلك ، فاتم يابني شيبان قد حاربتم كسرى

وهدمت عرشه في معركة ذي قار (٦١١ م ؛ عام البعثة) .

(٢) الاسود ج اسود وهو الافعوان ذكر الافعى (الحية) .

(٣) الجدود الاولى : الاسلاف ، والثانية : الحظوظ .

(٤) السماح والساحة : البذل ، وقصد الشاعر بالكلمة الاولى بذل النفس في

الحرب ، وبالثانية بذل المال .

(ح) فضامة الالفاظ والتراكيب : فهو يجب من الالفاظ ما ملا

الاسماع ؛ ومن التراكيب ما شغل الفكر . ثم يبيك حولها اقوالا وآراء
يستعيرها من قوى الطبيعة المختلفة كالمنظر والبحر ، والنار ؛ والحياة والموت
والحرب وبعدئذ يجبها بحكمة عرفها او اخترعها .

لما تغلب الجيش الاسلامي على بابك مدح الشاعر احد قواده : ابا سعيد
محمد بن يوسف الثغري فقال :

وفي ارشق (الهيحاء) ، والحيل ترتبي بباطلها في جاحم متوقد^(١)
عططت ، على رغم العدى ، انف بابك بعزمك عط الاتحامي المعضد^(٢) .
فالآ يكن وآى بشاؤ مقدد هناك ، فقد ولى بعزم مقدد^(٣) .
راك سديد الرأى والرمح في الوغى تأزر بالاقدام (فيها) وترتدي .
وليس يجلي الكرب ، رمح مسدد اذا هو لم يؤنس برأى مسدد !
وافخم من هذا قوله في عبد الله بن طاهر :

اليك جزعنا مغرب الملك كلما وسطنا ملاما صلت عليك سبابه^(٤)

(١) ارشق حصن للمسلمين خرج اليه بابك ليسيطو على مال ارسله المعتصم
للافشين ؛ جاحم متوقد : جهر شديد الاشتعال .

(٢) شفت عزمه كما يشق الثوب المخطط طولاً (لسهولة ذلك) .

(٣) ان لم تتركه مقطع الاعضاء (قتيلا) فقد تركه خائر العزم (مغلولاً جيوشه)

(٤) قطعنا القسم الغربي من الامبرطورية العربية ، فكنا كلما نزلنا في ارض رأينا

فيها من آثارك ما يستوجب الشاء عليك .

الى ملك ، لم يلتق كل كل بأسه
الى سالب الجبار بيضة ملكه ،
فوالله لو لم يُلبس الدهر فعله
ويا ايها الساري فير غير حاذر
فقد بث عبد الله خوف انتقامه
يقولون ان الليث ليث خفية
وما الليث كل الليث الا ابن عثرة
على ملك الا وللذل جانبه ^(١) ؛
وآمله غاد عليه فسالبه ^(٢) .
لافسدت الماء القراح معائبه ^(٣) .
جنان ظلام ^(٤) ، او ردى أنت هائبه .
على الليل حتى ما تدب عقاربته !
نواجه مطرورة ومخالبه ^(٥) ،
يعيش فواق ناقة وهو راهبه ^(٦) !

(د) احتفاظه بركزه الشخصي : يضرب ابو تمام في الارض الى ممدوحه
فاذا وصل الى ابعدهم مكاناً هان عليه ان يرجع صفر اليدين منه على ان
ينال رفته ويحمل في سبيل ذلك شيئاً من المنة ، او يبدي قليلاً من التذلل ^(١) .
واذا انشد فانما ينشد جالساً فاذا اتفق ان طرب الممدوح فوقف ^(٢) وقف هو
ايضاً . وقد سبق القول في انه كان يرفع نفسه الى مركز الممدوح او فوقه

(١) لم تحارب ملكا الا ذل .

(٢) هو يساب ملك الملك الجبار ؛ ومعفيه يسلبه ماله .

(٣) لو لم تنتشر افعاله في الدهر كله لكانت معائب الدهر قد افسدت كل
شيء حتى الماء الصافي (٤) وسطه ومعظمه

(٥) يعتقد الناس ان الاسد هو ساكن الاجمة ، البادية انباه واظافره ؛ ولو
عقلوا لقالوا ان الاسد (الشجاع) هو من يذنب الى عبد الله بن طاهر ثم يستطيع ان
يعيش بعد ذلك مقدار فواق الناقة (مسافة ما بين حلبتين) .

(٨) الاغاني ١٥ : ١٠٠

(٧) راجع ص ٢٧-٢٨

أحياناً ، ويرفع شعره فوق النوال الذي يأخذه .

أما طول القصيدة وقصرها ونوع لغتها والتشابه فيها والاستعارات، حتى القافية فكانت كثيراً ما تختلف باختلاف الممدوح؛ وسترى أنه مدح أدباء وشعراء كمحمد بن عبد الملك الزيات الشاعر الوزير؛ وأبي دلف العجلي الذي أخذ عنه الأدباء والفضلاء والشعراء المجددون، وقد كان له صنعة في الغناء أيضاً؛ وعلي بن محمد . . . بن إسماعيل، وكان أديباً شاعراً؛ وعلي بن الجهم الشاعر البغدادي المشهور؛ وغيرهم . فهو أحرى أن يُجَوِّد في مدحهم . ثم لا استغرب أنا أن يمدح أبو تمام أبا المغيث موسى بن إبراهيم الرافعي بنحو قصائد قوافي ثلاث منها : ثاء وسين ، وضاد ويحشر فيها : نبيث ، دثوث ، ميث ، شثوث ، لويث ، قدموس ، شوس ، كردوس ، أريض ، نحيض ، قبيض ، دحيض ، أنيض . . . ؛ فالممدوح أمير في الشام بدوي . ولا اظنك تعجب إذا رأيت هذه الكلمات الغريبة في مدحة لآل طوق من أمراء عرب الشام :

شجعاء جرتها الذميل تلوكه أضلا إذا راح المطي غراثا ؛

أجد إذا وئت المهاري أرقلت رقلا كتتحريق الغضا حثحاثا

طلبت فتى جُشَمَ بن بكر مالكا :

ضَرَّغَمَهَا وَهَزَبَرَهَا الدُّهَانَا .

لولا اعتادك كنت في مندوحة عن برقيدٍ وارض باعينا !

أما إذا قلبت الديوان فوصلت إلى مدائح الوزير الشاعر محمد بن عبد الملك الزيات فسترى أمثال « وصف القلم » أو « ديمة سمحة القياد سكوب » . ولا أحب أن أسير بك في الديوان بين مدائح الخلفاء والأمراء والقواد

والفقهاء ندرس خصائصها معاً فترى ان ابا تمام كان يصرف المديح حسب حاجته . ثم لاتوقن ان ماقلته لك قاعدة محكمة . لا ، انها ككل القواعد لها شواذها ؛ وانما الشذوذ برهان على القاعدة .

محمود ابو تمام — يبلغ عدد ممدوحى ابي تمام ستين — اكثرهم من العرب ^(١) ينتثرون في الهيئة الاجتماعية بين الخلفاء : كالمأمون والمعتصم ، والكتاب : كرجل اسمه ابو يزيد كان كاتباً لعبد الله بن طاهر . وترى هنا قائمة مفصلة باسماء الممدوحين مع مقامهم الاجتماعي وعدد القصائد التي مدحوا بها ، مثبتا بعد اسمائهم ^(٢)

(١) آل البيت المالك واسلافهم — علي بن ابي طالب وآله ١
المأمون (٢) ، المعتصم (٩) ، الواثق ٣ ، احمد بن المعتصم ٢ ، محمد بن عبد الملك بن صالح ١ ، الفضل بن صالح ١ .

(ب) وزراء الدولة — يحيى بن ثابت ١ ، الحسن بن سهل ٢ ، وهما من وزراء المأمون . محمد بن عبد الملك الزيات ٦ .

(ج) القواد — خالد بن يزيد بن مزيد ٧ ، ابنه محمد ١ ؛ ابو سعيد محمد

(١) انظر ايضاً امراء الشعر ص ٢٢٩

(٢) العدد المحصور بقوسين فيه شك ينشأ من نسبة القصيدة اليه او لغيره . قارن هذه بما ذكره الدكتور الاسود (١ : ٣١) وبقائمة الاستاذ المقدسي (امراء الشعر ١٧٥ - ١٧٧) ويزاد عليها ما سيرويه الدكتور الاسود في الجزء (الثاني وليس في طبعه الخياط .

بن يوسف الثغري ٢٩ ، آل حميد الطوسي ١ ، الافشين حيدر بن كاوس ١ ،
جعفر الخياط ١ ، وابو دلف العجلي (٥) .

(د) الامراء ، ورجال الدولة والقبائل - عبد الله بن طاهر امير
خراسان ٤ ، آل طوق امراء عرب الشام : مالك بن طوق ٨ ، عمر بن طوق ٨ ؛
ابو المغيث الرافقي ٥ ، اسحق بن ابراهيم المصبعي ٤ ، القاضي احمد بن ابي
دؤاد ١٣ ، القاضي حبش بن المعافى التنوخي ١ .

(هـ) رجال الاسر الكبرى - آل وهب (وكوا الوزارة ، ولكن بعد
ابي تام) : سليمان (٣) والحسن (١٢) ؛ علي بن مرة وابنه الحسن ٢ ، احمد بن
عبد الكريم الطائي ٢ ، داوود بن داوود الطائي ٢ ، عمر بن عبد العزيز الطائي ١
محمد بن شفيق الطائي ١ ، عياش بن لهيعة الحضرمي ٣ .

(و) الشاعر ابو العباس نصر بن منصور بن بسام ٢ ، الشاعر علي بن
الجهم ١ ، محمد بن حسان الضبي ٤ ، غالب بن عبد الحميد الصغدني ٤ ، محمد بن
الهيثم بن شيانة ٧ ، . . .

اما سائر المدوحين فهم متفاوتو المنزلة وقد خصهم الشاعر بقصيدة
قصيدة ، ومنهم من كان نصيبه اثنتين ، او ثلاثاً في النادر .

٢ الفخر - الفخر ان يمدح الشاعر نفسه او آله او قومه ثم يشيد
بذكرهم . وبضاعة ابي تام في الفخر الخالص قليلة جداً واكثرها فخر برطي ،
ولعله قال اكثره في مصر قبل اي قبل ان تقبل عليه الدنيا . ولا اعتقد ان
في فخره ما لا ينطوي على شكوى مرة ؛ وهذا الباب يفيدنا تاريخاً اكثر مما
يفيدنا فناً .

أقبلت الدنيا على أبي تمام وزادت ثقته بنفسه فانتقل بالفخر إلى قصائد المديح ينثره عند المناسبات ، وخصوصاً إذا كان الممدوحون طائيين : كآل عبد الكريم وآل حميد الطوسي ؛ أو من عرب الجنوب الذين منهم بنو طيء . كالقاضي أحمد بن أبي دؤاد الأيادي ، وعياش بن لهيعة الحضرمي . وحسبك ما علمت من ذلك عند الكلام على خصائصه . ومن فخره أيضاً :

وهل خاب من جذمه في أصل طيء . : عديّ العديين القلّاحس ، أو عمرو .
لنا جوهر لو خالط الأرض أصبحت ، وبطنانها منه وظهرانها تبر .
مقاماتنا وقف على الحلم والحجى : فامردنا كهل ؛ واشيينا حبر .
إذا زينة الدنيا من المال اعرضت فإزينا منها عندنا الحمد والشكر .
فن شاء فليفخر بما شاء من ندى ؛ فليس لحي غيرنا ذلك الفخر ^(١) .

وفخر أبو تمام بقومه ونفسه فانشد :

أنا ابن الذين استرضع الجود فيهم ، وسعّي فيهم وهو كهل ويافع .
مضوا ؛ وكان المكرّمات لديهم — لكثرة ما أوصوا بهن — شرائع .
هم استودعوا المعروف محفوظاً مالنا فضاع ؛ وما ضاعت لدينا الودائع .
إذا ما أغاروا فاحتوا مال معشر اغارت عليهم — فاحتوته — الصنائع .
فكم شاعر قد رامني فقذعته بشعري ؛ فامسى وهو خزيان ضارع .
كشفت قناع الشعر عن حُر وجهه فطيرته عن فكره وهو واقع .
يودّ وداداً أن أعضاء جسمه ، إذا انشدت — شوقاً إليها — المسامع !

٣. الرثاء — يجب ان اقدم البحث في رثاء ابي تمام بالرواية الآتية^(١) :
 بعد ان فرغ ابو تمام من انشاد قصيدته في ابي دلف العجلي « على مثلها
 من اربع وملاعب » ، قال (له ابو دلف) : انشدني قولك في محمد بن حميد
 (كذا فليجل الخطب وليفدح الامر) . . . فانشدته (القصيدة) فقال : والله
 وددت انها في ؛ فقال (ابو تمام) : بل افدي الامير بنفسي واهلي ، واكون
 المقدم . فقال : بل انه لم يمت من رثي بهذا الشعر .

رثاء ابي تمام اقل تكلفاً من مدحه وارق عاطفة . وفي رثائه يظهر لنا ان
 ذلك الجبار على الخطوب ، القاسي في الشدائد رقيق الحس ، وثيق الوداد .
 ثم هو لا يفقد رشده عند المصيبة ، ولا يشبهه رأيه فيمضي في التفجع ويصف
 ما يدل على التأوه في مبالغات لاجدوى تحتها . انه يبالي ، ولكن في
 استعارات وكنيات وتشابيه كما يفعل في مدحه ؛ ثم يبقى على هدوئه
 فيستطيع طرق المواضيع على نحو ما ترى في بعض اماديحه . الا تعجب حينما
 تسمعه يرثي ابنه الوحيد بقوله ؟

كنت عزيزاً به كثيراً ؛ وكنت صباً به ضئيلاً .
 دافعت — الا المنون — عنه والمرء لا يدفع المنونا .
 يدير في رجعه لسانا يمنع الموت ان يؤمنا .
 وكثير مما ورد في ديوانه موسوم بهذا الطابع ؛ فمن ذلك قوله :

(١) الاغاني ١٥ : ٩٩ - ١٠٠ ؛ ديوان خ ٤٠ - ٤٣

اصم بك الناعي ، وان كان اسمعا ؛ واصبح مغني الجود بعدك بقلعا .
فتي ، كلما ارتاد الشجاع من الردي

مفراً - غداة المأزق - ارتاد مصرعا .

إذا ساء يوماً في الكربة منظر
فان تَرُمَ عن عمر تداني به المدى -
فأ كنت الا السيف لاقى ضريبة
تصلاه ، علما ان سيحسن مسعا .
فخانك ، حتى لم تجد فيه نزعاً -
فقطعا ، ثم انثني فمقطعا .

رثاء آل حميد الطوسي - اجاد ابوتام في رثاء بني حميد الطوسي
خاصة حتى كان من امر ذلك الرواية التي بدأنا بها هذا البحث . ونرى ان
رثاءه لآل حميد يختلف عن سائر رثائه . ليس عجيباً ألا يكون لابي تام
في بني حميد سوى قصيدة واحدة في المديح ^(١) ثم يكون له في رثائهم
ثلاث قصائد اكثرها على قصر بعضها من عيون قصائده في الرثاء ^(٢) ؟

يظهر ان علاقة ابي تمام بآل حميد كانت صداقة اكثر منها منفعة ؛ وكانت اعجاباً باعمالهم واكباراً لحفاظهم ، وقد كانوا لذلك اهلاً . وما قصيدة « كذا فليجل » سوى صورة لنفس محمد بن حميد ؛ نعرف ذلك من

(١) جعل امراء الشعر عدد القصائد في مديح آل حميد ستة (ص ١٧٦) ؛ ولم يذكر الدكتور الاسود شيئاً من ذلك (ص ٣١) عند الكلام على مهدوحى ابي تمام .

(۴) دیوان خ ۳۵۸، ۳۶۶، ۳۶۸، ۳۷۱، ۳۷۲، ۳۷۵، ۳۸۱، ۳۸۷ مرتب

كتب التواريخ . روى ابن الاثير في اخبار عام ٢١٤ هـ ما يلي ^(١) :

« ... مكن رجال بابك بين الصخور ، فلما صار رجال محمد (بن حميد الطوسي) يصعدون في الجبل ، وصاروا على مقدار ثلاثة فراسخ انحدر بابك اليهم فيمن معه فانهمز الناس ، فامرهم ابو سعيد (الثغري) ومحمد بن حميد بالصبر فلم يفعلوا ، ومروا على وجوههم ، والقتل يأخذهم . وصبر محمد بن حميد مكانه وفر من كان معه غير رجل واحد . وسارا يطلبان الخلاص ، فرأى (محمد) جماعة وقتالا ، فقصدهم فرأى الخرمية يقاتلون طائفة من اصحابه . فلما رآه الخرمية قصدوه لما رأوا عليه من حسن هيئته ، فقاتلهم وضربوا سيفه ، ثم اكبوا عليه فقتلوه » .

هذه هي الحادثة التي استحدثت الخاوند في قصيدة من قصائد ابي تمام فاذا هي :

كذا فليجل الخطب ، وليفدح الامر ؛ فليس لعين لم يفض ماؤها عذر ^(٢) .
ومنها :

فتى كلما فاضت عيون قبيلة
دماً ، ضحكت عنه الاحاديث والذكر ^(٣) .

(١) ١٦٨ : ٦ - ١٦٩ في ايام المأمون

(٢) راجع ص ٤٩ - ٥٠

(٣) لهذا البيت معنيان ملموحان . (١) كلما هُزمت قبيلة ما وكثر فيها القتل ، كان هو الذي فعل ذلك فيتحدث عنه قومه بالبطولة . و (ب) كلما تزلت مصيبة بقبيلة ما واساها فيتحدث الناس بجدوده ومجده .

- فتى مات بين الطعن والضرب مريته تقوم مقام النصر ، ان فاته النصر .
وما مات حتى مات مضرب سيفه
من الضرب^(١) ، واعتلت عليه القنا السمر .
وقد كان فوت الموت سهلاً ؛ فردّه اليه الحفاظ المر ، واخلق الوعر ،
ونفسه تعاف العار ؛ حتى كأنما
هو الكفر - يوم الروع - او دونه الكفر !
فأثبت في مستنقع الموت رجله ، وقال لها : من تحت اخمصك الحشر .
غدا غدوة ، والحمد نسج ردائه ؛ فلم ينصرف الا واكفانه الاجر .
تردى ثياب الموت حمراً ؛ فما دجا
له الليل الا وهي - من سندس - خضر^(٢)
كأن بني نهران - يوم وفاته - نجوم سماء خر من بينها البدر .
يعزون عن ثاو تغزى به العلى
ويبكي عليه البأس ، والجود ، والشعر .
وأنى لهم صبر عليه (وقد) مضى
الى الموت ، حتى استشهدا : هو والصبر .

(١) لو بقي سيفه صحيحاً لما استطاع اعداؤه مهاكثروا ان ينالوه بسوء
(راجع رواية ابن الاثير ص ٨٣) .
(٢) مات شهيداً (حمراً ثيابه : كناية عن القتل) فدخل الجنة وارتنى ثياباً
خضراً من حرير .

ومن اجل مقطوعات ابي تمام في الرثاء ثلاثة ابيات قالها في القائد الطائي جعفر الحياط ، هي :

رحم الله جعفرًا ؛ فلقد كا (م) ن أيبًا ، وكان شهما رحيا .
 مثل الموت ، بين عينيه ، والد (م) ل ؛ فكلأ رأه خطباً عظيما .
 ثم ثارت به الحمية قديما فامات العدى ، ومات كريما !
 وكثيرا ما يذهب شاعرنا الى ضرب الامثال واستجماع الحكمة في
 الرثاء كقوله في محمد بن الفضل الحميري

جف دَر الدنيا ؛ فقد اصبحت تك (م) تال ارواحنا بغير حساب .
 لو بدت سافراً أهينت ؛ ولكن شغف الناس حسنها ، في النقاب .
 ان ريب الزمان يُحسن ان يُم (م) يدي الرزايا الى ذوي الاحساب !
 او قوله في رثاء ابنين لعبد الله بن طاهر ماتا في يوم واحد :

ان الفجيعة بالرياض ، نواضراً ، لاجلُ منها بالرياض ، ذوابلا .
 لهني على تلك الشواهد منها لو امهلت حتى تكون شمائلنا .
 واذا رأيت من الهلال نموه ايقنت أن سيصيرُ بدرًا كاملا !

لم يرث ابو تمام من الذين مدحهم الا خالد بن يزيد بن مزيد ، واسحق بن ابي ربيعي ، وعبد الحميد بن غالب ، والا بني حميد^(١) . وقد عزى ابا

(١) ديوان خ ٣٤٧ ، ٣٦٣ ، ٣٥٤ ؛ وراجع ايضا رثاء بني حميد

سعيد الثغري بولد له ^(١) . اما الذين رثاهم من غير هؤلاء الذين لم يمدحهم
فبضعة عشر شخصاً منهم اقرباء بعض الممدوحين . ولم يرث ابوتام المعتصم
بقصيدة مستقلة ، بل ادخل رثاءه في تهنئة ابنه الواثق بالخلافة .

نرى في ديوان ابي تمام بطائفة من الابيات رثى الشاعر بها بعض آله
واخوانه ، فاذا قرأتها لم تشك قط في ان الشاعر تسيل نفسه لوعة واسى ،
وان الاسى كان من نفسه في قرارتها . اما رثاؤه لغيرهم فكان قسم منه
يشبه ما تقدم ويشف عن عاطفة متأصلة ، وقسم منه يشف عن عاطفة
مكتسبة تكاد تعرفها من قوله في رثاء خالد بن يزيد بن مزيد :

وكنا جميعاً شريكى عنان ، رضيعي لبنان ، خليلي صفاء
وكنت اراه بعين الجلال وكان يراني بعين الاخاء ^(٢)

وكثير من شعره في الرثاء على هذا النمط ؛ وقد اجاد في سائر مرثيته
اظهار الاسى وان لم يكن يحسه احساسه في رثاء ولده الوحيد . اما انه
« كان يتخذ موت الميت سبباً ليعرب عن احزان نفسه لانه من اولئك
الذين صعب الحزن نفوسهم » ^(٣) فحكم يصيب هوى من نفوس الذين
تعمقوا في دراسة ابي تمام ، ولكن يعترضهم في سبيل اعتقاد ذلك قلة الرثاء
في ديوان الشاعر . ثم اذا نحن كابدنا وجاهدنا واستشهدنا لاثبات هذا الرأي
لم نخرج بغير ما الفناء في جميع الشعراء المداحين الرثائيين من انهم يتصنعون

(١) خ ٣٥١ ، ٣٧٩ ، ٣٧٧

(٢) خ ٣٤٧ ، ٣٥٠

(٣) مردم ، شعراء الشام ص ٥٣

الاسى احياناً ، وكان بعضهم يعد قصائد المديح والثناء قبل امد ، فاذا فوجئوا بانعام على رجل او بموته لم يحتج احدهم الا الى بضعة ابيات فيها اسم الممدوح او المرثي وفيها ذكر المناسبة . . . ثم لنختم هذا البحث بقول ابن رشيقي : « وابو تمام من المعدودين في اجادة الرثاء .^(١) »

٤ . العتاب — يختلف عتاب ابي تمام عن عتاب ابي نواس^(٢) ، فان ابا تمام لم يعاتب الا على تأخر رفق ؛ لذلك كان من المنتظر ان تكون معاتباته كلها على قلتها^(٣) في الذين مدحهم . ولكن قد شذله عن ذلك نحو ثلاث قطع : واحدة عاتب رجلا فيها في نبذ — وهو رفق ايضاً — واخرى عاتب فيها الحسن بن سهل لانه يميل الى غلامه ، وثالثة في صديق قطعه . . .

يتبع ابو تمام في عتابه طريقته في مدحه فهو فيه خشن الملمس ، والعتاب يحتاج الى نعومة ؛ وهو فظ في سؤقه ، والعتاب يحتاج الى مناسبة ؛ فشاعرنا يقول مثلاً :

ابا دلف^(٤) لم يبق طالب حاجة من الناس غيري ، والمحل جديب .
يسرك اني اُبت عنك مخيباً ، ولم يُر خلق من جدك يُخيب .

ولا اظنك تجهل مقام ابي دلف من ابي تمام وقصيدته فيه « على مثلها من اربع ملاعب » . وقد عاتب القاضي احمد بن ابي دؤاد بقوله :

اعلم ، وانت المرء غير معلّم ؛ وافهم — جعلت فداك — غير مفهّم .

(١) العمدة ٢ : ١١٩ (٢) ابو نواس : الدراسة ٣٢

(٣) خ ٣٩٤ — ٤١٢ (٤) راجع ص ٧٩ ، ٨١

ان اصطناع المرء ما لم توله مستكملاً كالبرد ليس بمُعَلَّم !
 فعتابه ، على ما ابصرت ، منفّر يزيد في الصد ولا يبقي على الود ، الا
 ما كان مثل عتابه لابي سعيد الثعري ، وهو نادر ، نحو قوله :
 انما البشّر روضة ، فاذا كا (م) ن يبذل فروضة وغدير .
 فاقسّم اللحظ بينا ، ان في اللح (م) ظ لعنوان ما يُجْن الضمير .

٥ . الوعيد والهجاء — يعاتب الشاعر الممدوح تذكرة بصلته
 واستدراكاً ليديه ، فاذا قنط من نواله انقلب اليه يهجو . الا ان بعض الشعراء
 يميّون بادىء بدء الى الوعيد والانذار قبل ان يتخطوا الى الهجاء : يفعلون
 ذلك في اثناء مدح او عتاب . من هذا القبيل ما انهى به ابو تمام قصيدة له
 في مدح ابي المغيث الرافقي :

وكن كريماً تجد كريماً في مدحه ، يا ابا المغيث .
 — وغدا تبين كيف غب مدانحي ان ملن بي هممي الى بغداد .
 ومن العجائب شاعر ضاعت به هوماته ، او ضاع عند جواد !
 اما تعريضه في اثناء العتاب فنه :

وانك لا تسر بيوم حمد تسر به ، وما لك لا يُساء .
 فان المدح في الاقوام ما لم يشيع بالجزء هو الهجاء .
 — سأقطع ارسان العتاب بمنطق قصير عناء الفكر فيه طويل
 وان امرأ ضنت يداه على امريء بنيل يد من غيره لبخيل .

افتشك بعد ذلك في ان هذا تحفّز للهجاء ؟

تناول الشاعر بهجائه نحو عشرين شخصاً فيهم ستة اشخاص كان قد مدحهم ؛ منهم عياش بن لميعة ، وقد اختصه باثنتي عشرة قطعة قال واحدة منها بعد موته ؛^(١) ومنهم ابو المغيث الرافي هجاء بخمس مقطعات ؛ وله قطعة قطعة في مالك بن طوق ، وصالح بن عبد الله الهاشمي واسحق بن ابراهيم المصبي . وقيل عرض بهجاء احد بني حميد ولم يهجه لمكان اسرته^(٢) .

اصطدم ابو تمام بشعراء كثيرين في مصر وفي العراق بعضهم مشهور كدعبل ومحمد بن ابي يزيد ، وبعضهم اقل شهرة . وهناك بضع قطع أخرى في اشخاص مختلفين^(٣) .

لا اعتقد ان ابا تمام نال بهجائه منالا قريباً او بعيداً ، فبعض شعره في هذه الناحية عادي ، وسائر ادنى مرتبة . انه لم يتبع طريقاً معروفاً يصل بها الى غايته فهو لم يعتمد الى ما يترك هجاءه اعلق بالقلب والصق بالنفس واسرع الى الحفظ ؛ ولا بلغ به من الحقيقة والمرارة ما يوجع حقاً ، وان كان قد افحش واقدع في بعضه . لذلك ترى كثيراً من هجائه اشبه بالمديح ، حتى انه لو كان مديماً لما انحط عن شعره الرافي ؛ تأمل ذلك في هجائه عتبة ابن ابي عاصم :

دمن تجمعت النوى في ربعها وتفرقت فيها السحاب الفرق

(٣) ص ١٦ ، ٦٢

(٢) راجع ص ٤٨ - ٤٩

(١) راجع ص ١٤ - ١٥

فترقرقت عيني دما فيها الى ان خلت مهجتي التي تترقرق .
 همهم الفتى في الارض اغصان المنى غُرست، وليست كل حين تورق .
 فهذه من اعلى طبقات المعاني ، ولكنها لا تصلح في معرض هجاء .
 ومثل ذلك قوله :

يكفيك حزنا ان عقلك ذاهب يبكي عليك، وان جهلك يضحك !
 ويندر في ديوانه مثل قوله في عياش بن لهيعة :

صَدَقَ مقالته ان قال ، مجتهداً : « لا والرغيف ! » فذاك البر من قسمه .
 وان هممت به فافتك بجذرتي ؛ فانها قطعة من لحمه ودمه .
 قد كان يعجبني ، لو ان غيرته على جرادقه كانت على حُرْمِهِ ^(١) !

هذه احدى نواحي هجاء ابي تمام لأن له في الاقذاع بضاعة غير قليلة ^(٢) ؛
 ولكن هذه البضاعة ليست في الدواوين التي بين ايدينا فقد اغفل الحياط
 مايس الآداب ^(٣) ، وكذلك لا نطمع ان نراها في « شرح ديوان ابي تمام » ^(٤)

٦. الوصف — يجب ان نقسم هذا البحث الى قسمين : الوصف
 الخالص اي الذي قيل في الوصف خاصة ؛ والوصف الذي جاء في اثناء المديح .
 ثم يجب ان نعلم ان باب المديح وان اسلوب ابي تمام فيه يغلبان على كل باب من
 ابواب الديوان .

(١) البر : القمح الجرادق : الارغفة ، الحرم : النساء . . .

(٢) لقد غفل الحياط فاثبت في نسخته اياتاً تلمح فيها الاقذاع لمحا لاشك فيه .

راجع ص ٢٨٦ س ٧ ؛ ٢٨٨ ع ؛ ٢٩٥ هجاء عبد الله الكاتب ؛ ٢٩٣ س ١٥ — ١٨

(٣) ديوان ٢٨٥ (٤) للدكتور ، الاسود ، راجع ص ٣١

تجيش نفس ابي تمام بصورة من صور الطبيعة او بمشهد من مشاهد الاجتماع
فلا يكاد يخرج من فيه الا وقد اصبح مقيداً بالصناعة اللفظية ، ممزوجاً
بعناصر من الشكوى والفخر وما اليهما؛ فهو حقيقة ولكن بلا الوان جذابة
ولا صدق في النقل عن الطبيعة . فمن ذلك قوله في غمامة ممطرة :

كالشيعة التفت على النقيب ، آخذة بطاعة الجنوب .
لما بدت للارض من قريب تشوقت لوبلها السكوب
تشوق^(١) المريض للطبيب ، وطرب المحب للحبيب ؛
لذيذة الريق مع الصبيب ، كأنما تهمي على القلوب !

اما النوع الثاني فصور بلا حقيقة ابداع فيها الشاعر لما رقشها به من الجناس
والطباق وبعيد التشبيه او قريب الاستعارة تبعاً للقصيدة التي استقرت فيها
كوصف الحر أو وصف القلم ، ففيه شيء من الحقيقة في كثير من بعيد
الخيال ولطيف التجنيس .

واما الاوصاف التي يجيدها شاعرنا فاوصاف المعارك والحروب ، فهناك
تشعر حقيقة ان شعور ابي تمام يغمره ويستولي عليك فتتصل نفسك بنفسه .
ولا بدع ان وصف ابو تمام معركة عمورية واجاد ، فلقد شهد بها بنفسه . واذا
قرأت له وصفه الخيل في الحرب :

واذا كان عارض الموت سحاً خضلاً بالردى اجشاً هزيماً ،
في ضرام من الوغى واشتعال تحسب الجو منها محوماً ،
واكتست ضمهراً الجياد المذاكي من لباس الهيجا دما وحمياً ،

(١) ربما : تشوفت ... تشوف

في مَكْرَر تلو كها الحرب فيه ؛ وهي مقورة تلوك الشكيا .
 ايقنت انك ترى تلك الجياد تحوض الغار امام عينيك وقد ضاقت حومة الوغى
 بالفرسان وصبر الفريقان ، والموت يتناول الابطال غير آبه للنتيجة ! . .

وصف القلم - من قصيدة يمدح فيها محمد بن عبد الملك الزيات ^(١) :

لك القلم الاعلى ، الذي بشباته
 تصاب ، من الامر ، الكلى والمفاصل ^(٢) .
 ألعاب الافاعي القاتلات لعبه ،
 وأري الجنى اشتارته ايد عواسل ^(٣) .
 له ريقة ظل ، ولكن وقعها ،
 بآثاره في الشرق والغرب ، وابل ^(٤) .
 فصيح اذا استنطقته وهو راكب ^(٥) ؛
 واعجم ان خاطبته ، وهو راجل .
 اذا ما امتطى الحس اللطاف ، وأفرغت
 عليه شعاب الفكر وهى حوافل ،

(١) راجع ص ٥٣ ، ٧٧

(٢) الشاة : الحد ؛ اصاب الكلى والمفاصل : احكم الاصابة .

(٣) اللعب : الريق ؛ الارى : العسل ؛ الجنى : القطف او ما يقطف ؛ اشتار :
 استخرج العسل خاصة ؛ العواسل : المستخرجة للعسل - ان قلمك ينفث مرة سماً ،
 ومرة يأتي بالشهد والعسل .

(٤) ريقه ظل : قليل الرطوبة (بالخبز) ولكن اثره وابل (مطر شديد) .

(٥) راكب الاصابع . وفي الايئات التالية يصف اخذ القلم بالاصابع . . .

اطاعته اطرافُ القنا ؛ وتقوضت

لنجواه ، تتويض الحيام ، الجحافل .

إذا استعزز ، الذهن الذكيّ واقبلت أعاليه ، في القرطاس ، وهي أسافل .
وقد رفدته ^(١) الخنصران ، وسددت ثلاث نواحيه الثلاث الانامل ،
رأيت جليلا شأنه ، وهو مُرْهَفٌ ضنى ^(٢) ؛ وسمينا خطبُه وهوناحل .

٧. الغزل والنيب ^(٣) — لا ريب قط في ان هذا الباب في ديوان

ابي تمام ادنى فنونه مرتبة عن مستوى مديحه ، « ولم يكن لابي تمام حلاوة
توجب له حسن التغزل ، وانما يقع له التافه اليسير في خلال القصائد » ^(٤) لما
علمت من خصائصه واسلوبه ، واذا كانت الصنعة قد اكسبت مديحه فخامة
واصابة مرمى فانها قد افسدت وصفه وغزله ونسيه . وسواء رأيت غزله
البحث او غزله في ثنايا المديح فانما يروءك منه تلك التشابه والاستعارات
التي قنص بها معانيه الغريبة ، اما العاطفة فلا . واحسن الغزل ما اثار العاطفة
لا ما اجهد العقل .

لاي تمام غزلان : مؤنث يكاد يقصره على مطالع قصائده في المديح ؛
ومذكر لا تكاد ترى سواء في باب الغزل عنده . فهو اذن ، ان تكلف

(١) سنده

(٢) دقيق من الضعف .

(٣) ابو نواس : الدراسة ص ٣٧

(٤) العمدة ٢ : ٩٥

الغزل اتى به مؤثراً لقبح الغزل المذكور في المدائح ؛ وان جرى على هواه اكثر
من الغزل المذكور حتى تنكر ان سبيله غير ذلك . وكيفما قلبت في غزله
الخالص فلا ترى فيه سوى شهوة تحرقه يود لو يطفئها عند كل حبيب . وكل
عزة نفس في حياته العامة وفي مديحه يضيعها في حياته الخاصة وفي غزله .

لم يُعرف ابو تمام بحبيبة لها اسم معين ولا عُرف له من لها اسم معين ،
وكذلك في غزله المذكور فلانما تجد بضعة اسماء ، له نحو اصحابها عاطفة عارضة
لا تلبث ان تستقر حتى تنتقل ثائرة تبحث عن هو جديد .

اما نسيبه او غزله ايضاً في اثناء ابيات المديح فيجب ألا نشك ساعة
في انه صناعة اكثر منه عاطفة وان كان يستهويك كقوله :

السالبات امرأ عزيزته بالسحر ، والنافثات في عقده .

لبسن ظلين : ظل امن من الدهر ، وظلا من لهوه ودده .

— كأن الدمع يُنثر من نظام على تلك المحاجر واخودود .

تريدون المزيد ؟ وليس عندي —

وراء محل حبك — من مزيد !

ومع انه لم يحسن النسيب فقد احسن التخلص منه الى المديح .

واذا كانت اخلاق ابي تمام على ما ذكرنا فمن البدهي ان يكون له

مُجون ، سوى ان ناشري ديوانه قد اهملوا ذلك البته ^(١) .

نُجُوزِجْ مِنْ غُرْلِهِ :

لَا آكُلُ التَّفَاحَ ، عَمْرِي ، وَلَوْ جَنِيَّتَهُ لِي مِنْ جَنَانِ الْخُلُودِ .
وَاللَّهِ لَا أَتْرُكُهُ لِلْقَلْبِ ، لَكِنِّي أَتْرُكُهُ لِلْخُدُودِ !

عَفَّتْ مُحَاسِنُهُ عِنْدِي إِسَاءَتَهُ ، حَتَّى لَقَدْ حَسُنْتَ عِنْدِي مُسَاوِيَهُ .
هَذَا مُجِيبُكَ أَدْمَى الشَّوْقِ مُهْجَتَهُ ؛ فَكَيْفَ تُنْكَرُ أَنْ تَدْمِيَ مَاقِيَهُ ؟

أَيُّ شَيْءٍ يَكُونُ أَحْسَنَ مِنْ صَبْرِ أَدِيبٍ مُتَيِّمٍ بِأَدِيبٍ ؟
كَأَدَّ أَنْ يَكْتُبَ الْهُوَى بَيْنَ عَيْنَيْهِ هَذَا كِتَابًا : « هَذَا حَيْبٌ حَيْبٌ ! »^(١)
غَيْرَ أَنِّي لَوْ كُنْتُ أَعَشَقُ نَفْسِي لَتَنَغَصَّتْ عَيْشَهَا بِالرَّقِيبِ .

قَدْ قَصَرْنَا دُونَكَ الْإِبْصَارَ خَوْفًا أَنْ تَذُوبَا .
كَلِمَا زِدْنَاكَ لَحْظًا زِدْنَا حُسْنًا وَطِيًّا .
مَرَضْتُ الْحَاضِرَ عَيْنِي لَكَ فَأَمْرَضْتَ الْقُلُوبَا .
مَا تُرِيدُ الشَّمْسَ وَالْبَدَّ رَ إِذَا كُنْتُ قَرِيبَا ؟

اجْعَلِي فِي الْكَرَى لِعَيْنِي نَصِيًّا ، كَيْ تَنَالَ الْمَكْرُوهَ وَالْمَحْبُوبَا .

(١) حبيب الاولى : محبوب ؛ والثانية اسم ابي تمام .

أشركي بين دمع عيني ونومي ، واجعلي لي من الرقاد نصيباً .
 كنت أهوى البيض الحسن ، فقد أصبح حبي عن غيرها محجوباً .
 قربتها الهني ، وباعدتها النأي ، فاضحت مني بعيداً قريباً .
 ان تكن مقلتي ، اذا غبت ، تستو لي عليها الدموع (حتى تؤوبا) .
 فلکم نظرة ، تُسرّ بها منك ، لها روعة تشق القلوبا .

الحكمة — كَوْنُ حكمة ابي تام اشياء ثلاثة^(١) علمه وسعة اطلاعه ،
 و (٢) كثرة تجواله ، و (٣) الثقافة الراهنة .

فاما علمه وسعة اطلاعه فقد مكناه من ان يجيل فكره في تراث
 الاولين وآراء الشعراء فيستخرج احسنها ، او يصقل بعضها او يشتق منها
 نواحي جديدة . من اجل ذلك اتهمه الامدي بسرقات كثيرة^(١) . والحق
 ان ابا تام حاول ان يزيد هذه المعاني التي اخذها اما بالغوص على اوجهها ، او
 بكسوتها من الصنعة حلة مجيدة ، وقد احسن في كثير منها :

* واذا تأملت البلاد رأيتها * تأثري كما تأثري الرجال وتعدم .
 * فلم يجتمع شرق وغرب لقاصد ، * ولا المجد — في كف امريء — والدرهم !
 * لاشيء ضائر عاشق ؛ فاذا نأى * عنه الحبيب فكل شيء ضائره .
 * اني تأملت النوى فوجدتها * سيفاً على صبر الهوى مساو لا .
 * ما ابيض وجه المرء في طلب الغنى * حتى يسود وجهه في البس .

(١) الموازنة ص ٢٣ — ٥٤ ، راجع ص ٤٧

* وزعمت ان الرزق يطلب اهله
 * اذا عُنيت بشأوقلت اني قد
 * ما آب من آب لم يظفر بحاجته ، ولم يغب طالب بالنجح لم يُنْجَب .
 ولا ريب قط في ان هذا النوع اعلى انواع حكمه ، واي حكمة تبلغ
 الى قوله في اصابة المرمى وسهولة التعبير من قوله :

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى ؛ ما الحب الا للحبيب الاول !
 كم منزل في الارض يألفه الفتى ، وحنينه ابدأ لاول منزل .
 فهذه تستحق ان تسير على وجه الدهر اذا استعملنا تعبير ابن رشيق .
 واما حكمه المستمدة من الثقافة الراهنة فكثيرة الصنعة كثيرة التكلف
 بعيدة عن اسس « المثل السائر » . لا يفهمها الا النحاة ، او الفقهاء ، او العلماء
 او الفلاسفة . ومن اجل ذلك ايضا كان يتهم بقول ما لا يفهم كقوله في
 الحمر مضمنا اشارة نحوية :

خرقاء يلعب بالعقول حبابها كتلاعب الافعال بالاسماء ؛
 وقوله في العطاء ، وفيه اشارة الى آي من القرآن الكريم ^(١) :
 الود للقربى ، ولكن عُرِفَه للابعد الاوطان دون الاقرب .
 وعندي ان هذه لاتدعى حكمة ولكنها مجازاة لزمن شهد الثقافات
 المختلفة من عربية اسلامية او فارسية ويونانية وهندية فاراد ان يقيد معرفته
 لها بابيات شعره ؛ فكان يضربها امثالا ، ولكنه لم يصب دائما .

(١) الشورى (٤٣) : ٢٣ ؛ البقرة (٢) : ٨٣ ، النساء (٤) : ٣٦ :

وغير هذه .

غير ان من احسن اقواله في الحكم واختراعه في المعنى قوله الذي اكتسبه من اختباره الخاص لا من الثقافات الشائعة :

- * واذا اراد الله نشر فضيلة طويت ، اتاح لها لسان حسود .
- * لولا اشتعال النار فيما جاورت ما كان يُعرف طيب عَرَف العود^(١) .
- * وطول مقام المرء في الحي مخلق لديباجتيه ؛ فاغترب تتجدد .
- * فاني رأيت الشمس زيدت محبة الى الناس ، ان ايست عليهم بمرمد^(٢) .
- * لاتنكري عطل الكريم من الغنى ،

- فالسيل حرب للمكان العالي .
- وتنظري خبب الركاب ينصها محي القريض الى مميت المال^(٣) .
- * ليس الغني بسيد في قومه ، لكن سيد قومه المتغالي^(٤) .
- * سكن الكبد فيه ان من اء ظم ارب ألا تُسمى اريبيا^(٥) .

٩. الزهد — كان الشاعر احياناً — اما في العصور المتأخرة فداثلاً — ينظم في ابواب الشعر من جميع ابجده وعلى جميع قوافيه . فاذا رأينا زهداً لابي تمام فليس معنى ذلك انه ترهد ، فهو لم يبلغ السن التي يلجأ فيها الانسان ليحاسب نفسه على اعماله السالفة فقد مات في اوائل كهولته او في واسطها على اكبر تقدير . ولم نعمل عارضاً اتفق لابي تمام يدفعه الى الزهد كما كان شأن ابي نواس . وليس لابي تمام في هذا الباب جيد ولا جديد .

(١) خشب ذكي الرائحة (٢) دائمة — خ ١٠٠ — ١٠١
(٣) خ ٢٤٦ (٤) خ ٢٠ (٥) خ ٢٧؛ الارب : الحاجة

واما الابيات الستة والاربعون التي اثبتتها الخياط ^(١) فهي ركيكة جداً لا يعقل ان تصدر عن مثل ابي تمام كقوله :

وأخلص لدين الله صدرأ ونية ، فان الذي تخفيه يوماً سيظهر .
فلا بد يوماً ان تصير لحفرة باثنائها تطوى الي يوم تنشر .

هذا مجمل ما يمكن ان يقال في شاعر ملاً عصرأ ، وترك بعده دويأ ؛ شاعر مثل الاسلام والقومية اجمال تمثيل ، ووقف ديوانه على جلاو عظمتها الحق في شعر متين .

حق لشعر ابي تمام ان يُحب فهو شعر مملوء بالمعاني ، مزدحم بالصور الجميلة ، مرصوف رصفاً متقناً يدل على براعة لم يظفر بها كل شاعر ؛ بل لم يظفر بها احد سوى حبيب بن اوس . انك لا تجد قصائد ابي تمام مُزجاة ترفض ابياتاً جوفاء عن معان تافهة ؛ ولا اصواتاً مختلفة عن افكار غير مؤتلفة .

قد لا يطيب لك ان تحمل ديوان ابي تمام في زُرْهك ، او ان تقرأ منه في سمرْك ؛ ولكن اذا اعتزلت ضوضاء العالم ، وترفعت عن سفاسف السوق ، ومحاصر الجبال ثم اردت ديوان شعر تُسرح طرفك في ابياته وفكرك في ارجائه فليس لك الا بضعة دواوين ، احدها — وقد يكون اعظمها شأنأ في ذلك — ديوان ابي تمام .

قد يأنف بعض الناس من مجالسة السوق والشطار والعيارين كي يميز

نفسه منهم امام الناس ولكنه يشركهم في كل ما يميلون اليه من هو وحديث
وقصص . فهو من اجل ذلك على الحقيقة منهم ، تربطه بهم آصرة الذوق ،
وتلقه بنبتهم علاقة النشأة الاولى . ومن الناس من لا يستسيغ شعر
ابي تمام واضرابه احتجاجاً بصعوبته وتعقيدته ؛ ولو نسب ذلك الى تنافر
الفطرة ومعاصرة الفكرة لكان قوله اقرب الى الصواب ، واجدر بالاعتبار .
فلا تحمل اذاً على ابي تمام من اجل بعد معانيه وغريب كلامه فقد يكون
ذلك فخراً له ، وهو كذلك ؛ وقد يكون قصر باع فيك ، ولعله ذلك .



الاضطاء المطبعية

الصفحة ١٨ : السطر ١٤ همدان صوابها = همدان

ص ٣٢ : س ١٦ درهما = درهم . ص ٣٠ : ٢ اسرة = اسرته

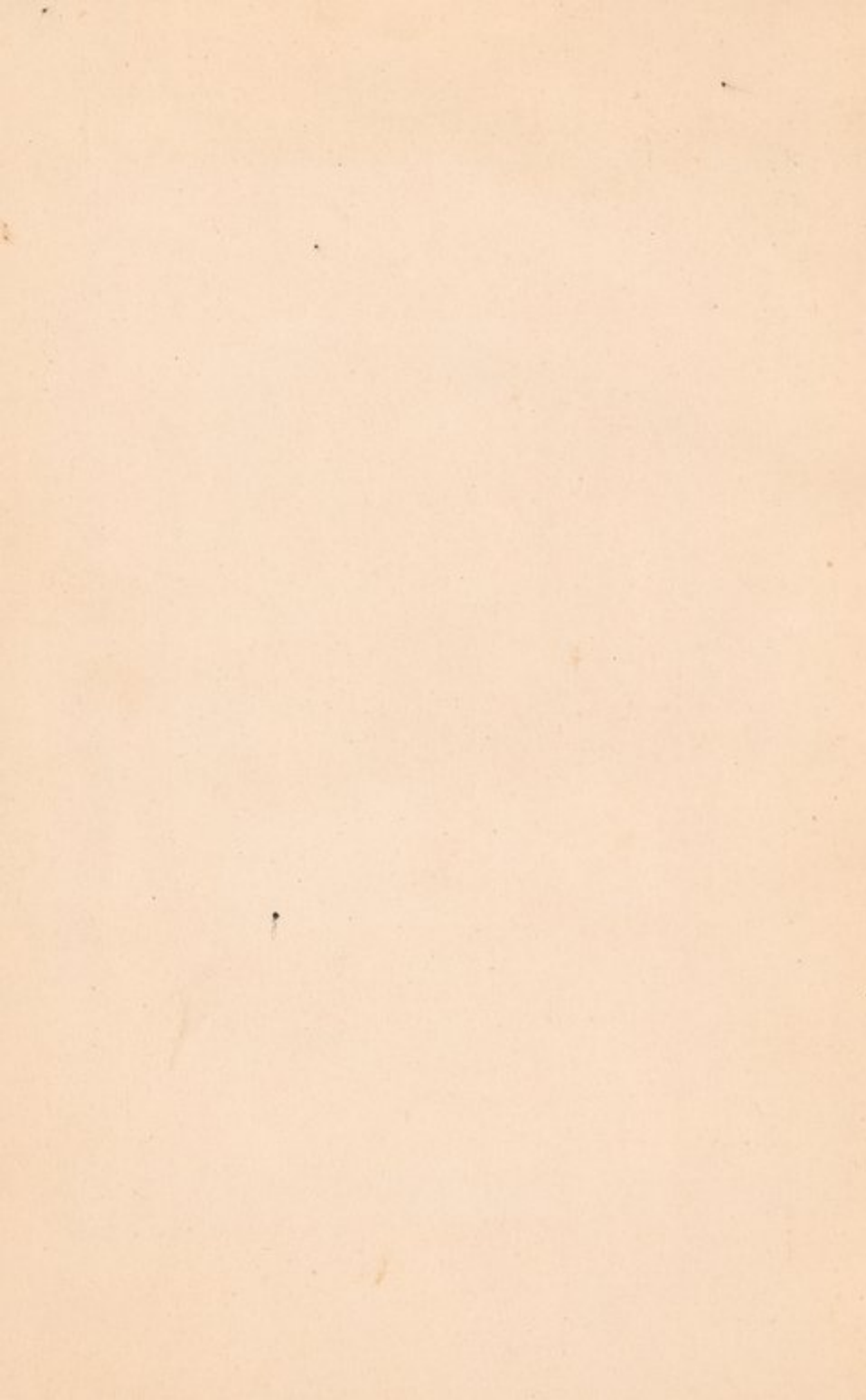
ص ٣٢ : س ١٧ علية = عليه ٣٤ : ١ بطرستان = بطرستان

ص ٥١ : ٥ ٣ = ٣ ب

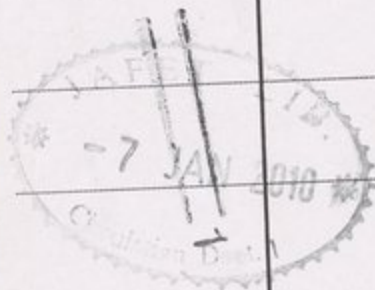
ص ٥٥ : ١٨ lies : Geschichte ... Seite

ص ٦٠ : ٦ المعتصبون (مرتين) = المعتصبون

٦٦ : ١٦ - ١٧ محمد بن عبد الملك الزيات ٩٦ : ٦ = ٨ . ١ حكمة



DATE DUE



فروخ، عمر

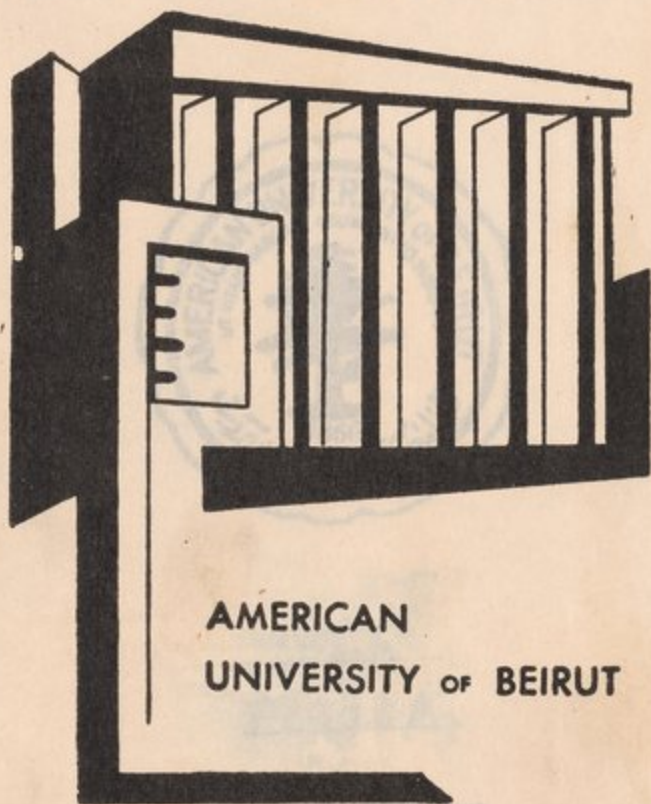
ابو تمام...

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01034663

American University of Beirut



AMERICAN
UNIVERSITY OF BEIRUT

General Library

892.71
A158YFrA